

باب وقائع العرب المشهورة حرب البرق

إذ قد فرعنا من الكلام على دول ملوك العرب وشعرائهم المشاهير شرعنا الآن في ذكر ما وقع في أيامهم من الحروب الشهيرة فمن ذلك حرب البرق بن روحان التميمي وما كان من حديثه وأخباره مع ليلي ابنة لكيز بن مرة فيقول أنها لما كثرت شعوب العرب في الزمان الأول وتفرقت قبائلهم في أقطار البلاد كان أول من اشتهر منهم أولاد نزار بن معد بن عدنان وهم إياد وربيعه وأنمار ومضر فسكن إياد وربيعه وإنمار ومضر وسكن إياد العراق وسكن أنمار اليمن كما تقدم الإيراد على ذلك في أول الكتاب في ذكر نسائهم وسكن ربيعة نجد العريض وما يليها من الأرض وكان رئيس ربيعة بن نزار أسد بن بكر بن مرة فأولد روحان أبو البرق وابنة زوجها من لكيز بن مرة فأولد منها خمسة أولاد وهم صاف وعكرمة الأرقم وعقيل ويحير وثلاث بنات وهن سعدى وحولة وعلى زوجة البرق فرج لكيز ابنته سعدى بالملك ثعلبة الأعرج الغساني وزوج خولة وقيل بل اسمها كاملة بشبيب بن هيم الطائي خال البرق وبقيت ليلي وكان يقال لها ليلي العفيفة وكانت أصغرهن سنًا وأحسنهن وجهًا وأدبًا وكان البرق يحبها حبًا شديدًا وكان كثيرًا ما يذكرها في شعره فمن ذلك قوله فيها

سال دمعى قرنفلًا ولبابا
شجرًا أينعت بكاء وانتحابا
ساح دمعى على الخدود انسكابا

ما لعينى جئت على عذابا
زرع الحب فى بساتين قلبي
كلما قلت تسلى فؤادي

ولين ظن فى الملام صوابا
زاد قلبى صباةً وعتابا
أو سقيم كفى بهذا مصابا
وجنونا ولا جنيت ارتكابا
وبنان رخص يزين الخضابا
حالك اللون بات يحكى الغرابا
أو هلالاً جلا ضياه السحابا
أو قد الحب فى فوادى شهابا
حرقة للهوى تزيد التهابا

قبح الله من يلوم محباً
حباً ليلى وحبنا آل ليلى
من رأنى يقول ذا طيف جن
عمر ك الله ما بجسمى سقام
غير حب لذات وجه مليح
وأثيث كأنما الليل فيه
من رآها يقول ظبية أنس
قد برانى وقد بلانى هواها
كل يوم تشور فى وسط قلبي

وكانت ليلي من الغرام به والميل إليه أيضاً بمنزلة عظيمة وكان البراق فى صغره يتبع رعاة الإبل ويحلب اللبن ويأتى به إلى راهب حول المراعى فيتعلم منه تلاوة الإنجيل وكان يدين بدينه وكان حليماً كريماً شجاعاً وقوراً خبيراً ومع ذلك لم يبلغ الخمس عشرة سنة حتى جاءت الحرب بين بنى ربيعة وبنى إباد ولحم فظهر منه من القيام والفروسية ما لم يكن لغيره من فرسان الجاهلية فعظمت منزلته فى أعين الناس واستهالوا أمره وأثنوا عليه جميعاً وقد ذكرنا أن ليلى العفيفة ابنة لكيز بن مرة قد بقيت فى بيت أبيها وكان البراق يطمع أن يتزوج بها وكان قد شاع فى العرب حسنها وأدبها حتى ذكّرت فى مجالس الملوك وتحدثت بها الناس فيكل مكان وكان أبوها لكيز كثيراً ما يتردد على عمرو بن ذى صهبان أحد ملوك اليمن فيجزل عطيته ويحسن إكرامه فوفد عليه ذات يوم فأكرمه وأتحفه بالعطايا الثمينة ثم خطب منه فى مجلسه ابنته ليلى فلم يرد له جواباً واستحى منه لجل إكرامه له وإنعامه عليه وانصرف من عنده إلى دياره وبعد أيام قليلة جهّز إليه عمرو وفداً بالهدايا السنية فقدموا عليه وقدموا ما أتوا بهش من التحف والأموال فأنزلهم أحسن منزل وأكرمهم غاية الإكرام ثم خطبوا منه ليلى فقال أنى قد زوجت ابنتى لى بغير إذن قومى وأما هذه فلا بد أن أشاورهم فى أمرها فإن وأفقونى كان ذاك أحب ما عندى

وإلا رجعتم إلى صاحبكم قالوا افعل ما تريد فانصرف لكيز على خلوة واستحضر أولاده وقال على بعمكم ربعة وأولاده وخالكم روحان وأولاده فجاءوه بهم وجلسوا بين يديه فاستشارهم في أمره وأطنب لهم في الشئ عليه وأنه يكون لهم عزاً وكهفاً في عظام الأمور وكان لكيز سيّد قبائل وإيل ومدبر أمورهم فأطرق كلاً منهم رأسه على الأرض لأنهم يعلمون رغبة البراق فيها وأنه لا يريد غيرها وهم لا يريدون لها غيره فتكلم ربعة بن مرة وقال:

أغرك بيعهما بنقدي وافر	غربت كاملة وسعدى إنما
من جرد خيل أو ثياب حراير	وظرايف الملاك عندك لم تزل
فى ملك غسان وملك مساور	فدع الطماعة واسل عن تزويجها
لتعض فيه على بنان الخاسر	ولبن أبيت بسوء فعلك رأينا

فقال لكيز قد سمعت ما عندك والتفت على كليب بن ربعة وقال هات ما عندك فقال:

مقالى صواب لن يكن فيك ينجع	وفى بعض هذا ما يضر وينفع
أرانا كأننا حولتيك ثعالب	وأنت كلضيب النار لا تنروغ
نرى غير برّاق إذا كان معظم	من المر محذور يخاف ويرجع
فإن كان قد أعياك يا عم ما ترى	فيارب راس بالصوارم يقطع
وليس الذى أملت أنه أن تناله	ولا فى الذى جاءت به الوفد مطمع

واشتد غضب كليب لأنه كان يحب البراق حباً شديداً فقال لكيز قد سمعت ما عندك فما ترى يا روحان فقال اعذرونى من ذلك فقال لا بد لك من إظهار رأيك فى هذا الأمر فقال:

أخوك وأنت أولى بالصواب	وما عند ابن سولة من جواب
سوى أنى اميل على رضاكم	واكتم عنكم نجوى الخطاب

إذا ما المستشار أفاض مصحًا
فكل الرأى اقبله لديكم
دعوا رأيى فليس له سيلٌ
ولم يقبل أفاض إلى العتاب
ولو فيه عظيمات المصاب
ورأيكم المفوض فى الصعاب

فلما سمع لكيز كلام صهره قال لابن أخيه نؤيرة أشر علينا يا نؤيرة بما أنت أهله
فقال:

أشير وهل رأيى يصح ويقبلُ
وأنتك بالرأى المفوض عارفٌ
لعمرى وإن كانت ظنوني كثيرةً
وترغب فى فل الملوك لأنهم
وإن طالت الملاك بالنيل والجدى
وإن تطلب الرأى الذى ليس نافعًا
ورأيك فى ما تدعيه مفضلٌ
وغيرك فى هذا يضلٌ ويجهل
فإنك للبراق تأبى وتخذل
لهم فى فنون الفضل ما هو أفضل
فإن بد البراق بالروع أطول
فليس أخو قولٍ كمن هو يفعل

فقال لكيز قد دعوناكم للمشورة فما بال التهديد والوعيد ثم أعرض عنهم لسمع
ما عند المهلهل بن ربيعة وكان اصغر أخوته فتكلم المهلهل وأغلظ لعمه بالكلام
وتنفس مغضبًا وقال:

ما لى وللرأى فى ما كنت أجهلهُ
بالله ما جئت إلّا ما علمت وما
لو كنت ترجو بنى عمٍّ وتأملهم
فالبس حريرك أنى عنك فى شغلٍ
لا ترجوّن لكرامات الملوك ولا
أرح فؤادك واررد ما أتوك بهُ
وأنت تعلم ما تهوى وتفعلهُ
يخفى عليك الذى تنوى وتعقله
ما كان يقصاك ما جاء أفضله
لباسى الصوف أرضاه وأقبلهُ
تعجل بأمرك لشرا الأمر أعجلهُ
واقنع بعيشك هذا الرأى أجملهُ

فتبسم لكيز من كلام المهلهل ثم أقبل على شريف قومه وقال يا برّاق أن هذا
الملك سبقنى بالنعمة وعمنى بفضلِهِ وكان يظنُّ بى ما يظن بالسادات أنها مطاعةٌ

متبوعةً فخطب إلى في مجلسه وخاصته ووزرائه وقد أنعمت له أملاً فيك وحسن ظنّ
بك غير مخالف وجل قصدي بان يكون هذا الملك فرجاً لشدايكم وحصناً في
جواركم وذخيرةً لعظايم أموركم وما ظننت أحداً يخالفني غيرك وقد سمعت
جوابهم فهل ترضى يا بُنى أن تخالف عمك في هذا الأمر ولم أقل ذاك إلا بعد علمي
بصبرك وشرف نفسك ونخوتك لعشريتك فلما سمع البراق كلام لكيز تنفس
الصعدا وأنشد يقول:

يا طالب المر لا يعطى أمانيه	استعمل الصبر في ما كنت تبغيه
والبس لشرك ما تحفيه مجتهداً	والبس عفافك في ما كنت تعنيه
يا أيها الشيخ والمرجو نايله	ناديت من هو ما يرضيك يرضيه
أنى أشير بما تهواه متبعاً	هواك دع عنك ماذا أنت تأتیه
أكرم وفودك والميعاد أوف به	ودع ربيعة في ما قال وابنيه
فصاحب الصدق يجنى صدقه حسنا	وصاحب الشر سوء الشر يجنيه
أنت المعول في أهليك حيث نرى	لثوب عرضك أثواباً تنقيه
فأكرم بناتك وافعل ما أردت بها	من صالحات ومن خير ترجيه
لكيز لا تغدرن ما كنت موثقه	ومن عناك فيأني سوف أعنيه
اتبع مرادك لا تتبع كليب فما	يرد قولك لغو كان لاغيه
لا تنظرن لسقم حل في جسدي	فصاحب الداء يلق من يداويه
يا أيها الوفد قد فزتم بحاجتكم	وفد بن صهبان عمرو نحن نفديه
الواهب المئة الحمراء يتبعها	من وافر النقد آلاف لراجيه
لا تخبرن عمرو من قولي بفاحشة	فلست أرض بدم أن أكافيه
واهد التحية منى لابن مارية	وطيبات سلام سوف أهديه

فلما فرغ البراق من شعره قام أبوه وإخوته وربيعه وأولاده مغضبين وأقبل على

لكيز أولاده يلومونه وقالوا يا أبانا أن غضب عمنا وبنيه لشائق عظيم فهل لك أن لا تفعل. فقال أن البراق ثمة فوادى ولا شيء يفوته عندى وقد عذرني لذكاء عقلوه وسعة صدره فكونوا طوعى من بعده * ثم أمر لهم بجياد الخيل التى أهداها له الملك وقسمها بينهم يريد أَرْضاهم بذلك فقالوا نحن راضون لرضاهم وساخطون لسخطهم وافترقوا * وقام لكيز إلى الوفد وأخبرهم بما كان فقالوا لا نرى رأياً حتى نخبر الملك بما أنتم عليه * ثم ودعوه وانصرفوا على الملك وأخبروه بما كان وأنشدوه أبيات القوم فشكر البراق وقال سوف أكافيه على مرونة وحسن أخلاقه * قال ابن نافع ولما يئس البراق من ليلى اشتد به الوجد وصبر ذاك اليوم إلى أن أظلم الليل فقصد أبيات ليلى ودخل عليها وهى نائمة فأيقظها وكانت محجوبة عنه بمظنة خطيبته إياها فقالت ما ذاك يا برّاق فقال جئتُك زائراً ومودعاً وأخبرها بأن أباهما أنعم بها للملك فتنفّست طويلاً وقالت يا لك من عمٍّ ما أطولُه * ثم بكّت بكاءً شديداً وقالت له أن الحب قد نزل على وعليك والصبر جلبابٌ أحسن فاعد من الصبر ما تعطى به هواك وتكتم به داءك فلما رآها البراق على تلك الحالة شفق عليها وبكى لبكاها وهمّ بالانصراف عنها فقالت له أقم هذا الليل نتمتع من الوداع وسيسدل الحجاب من غدٍ ويطول الفراق بيننا ثم أنشدت:

إلينا وصالٌ بعد هذا التقاطع
جفونك من فيض الدموع الهوامع
تصوّب عيني حسرةً بالمدامع

تزود بنا زادا فليس براجع
وكفكف بأطراف الوداع تمتعاً
ألا فأجزنى صاعاً بصاع كما ترى

فأجابها البراق يقول:

فداعى الشوق أجدر أن يطاعا
متى أخفيت هذا الصوت ذاعا
وأبتدل السرايا والرقاعا
وأفرده الوليدات الصناعا

خذى بالصبر لا تبكى ارتياعاً
وغضى الصوت يا ليلى فإنني
ولكننى سأعرض عنك جهدي
وأقرى طارقى لحماً غريضاً

ولست وإن حويت جميع هذا أتيت به وربكم امتناعا

وقبلى والدى أسد بن بكرٍ	علا فى الناس فخراً واصطناعا
وروحانُ أبى وأخى ظليلٌ	فشأ فى الناس ذكرهما وشاعا
فإن يكن اللكيز عليه حكمٌ	فإن لنا احتكاماً وامتناعا
تعزى واصبرى فلنا عزاءٌ	نعزیه إذا كشفوا القناعا
أكوع عن الفراع ورب قرنٍ	غداة الروح عنى فيه كاعا

وبات البراق يودع ليلى وتودعه إلى آخر الليل فخرج وأتى إلى أبيه وأخوته وأمرهم بالرحيل فارتحلوا ونزلوا على بنى حنيفة قومهم واجتمعوا فى أوطانهم وأخذ البراق يعزى نفسه عن ليلى وهو لا يزداد إلا شوقاً إليها وأنشأ يقول:

قل للتى تركت فؤادى هائماً	يرعى رياض ديارهم ويروحُ
حسبى بحبك أن أبيت مسهداً	والدمع من فوق الحدود سفوح
يا ذات وجه كالللال إذا بدا	خلق الجمال لديه وهو مليح
منى بقربك لأعدمتك مرةً	حاشا المحب فما المحب شحيح
كم بين من يمسى ينام وآخرٍ	يمسى على ظهر الفراش ينوح
فانظر خليلى لأعدمتك بيننا	هل يستوى ذو علوٍ وصحيح

وكان للبراق جارية جميلة يقال لها طريقة قد زوجها بسلام له يقال له سريع * فلما سمع الغلام أبيات مولاه وعلم بشدة شوقه ظن أنه يريد طريقة فقال لها يا طريقة إننى أرى سيدنا يتكلم بالمحبة والشوق وربما كان ذلك من أجلك فأرى أن تتزنى بأحسن زينتك وتلبسى أخضر ثيابك وتذهبي إليه وتكثرى من التعرض له فإن وجدتى له رغبةً فيك طلقتك وأثرته بك فتزيت طريقة بحللها وانتهت إلى سيدها وأكثرت من التعرض عليه فلما علم البراق بمرادها أنشأ يقول:

كفى عن التعريض يا طريقة	إنك قد أصبحت لى صديقة
-------------------------	-----------------------

كريمةً عزيزةً حقيقةً على فى ما قلته شقيقه
هيهات عندى عروّة وثيقه لأكرم الناس على الخليقه

فقامت من عنده مسودّاً وجهها فانتهدت إلى زوجها وقالت له قبح الله رأيك لقد فضحتنى ثم أخبرته بما كان وأنشدته الشعر فطابت نفسه مما يحاذر.

قال الراوى وإن ليلى بعد رحيل البرّاق من الحى قد ضاق صدرها واشتد بها الحب وتكاثرت شجونها وعظم عليها فراق البرّاق وهى كاتمة ما عندها لا توح به إلى أحدٍ خوفاً من الفضيحة * فلما كان ذات يوم دخلت عليها بنت عمها أخت كليب والمهلهل فسلمت عليها وجلست عندها ثم قالت يا ليلى أمالك أن تجزعى بما فعل أبوك بسيدنا وفارس خيلنا البرّاق قالت وما ذلك وقد كتمت عنها الخبر كأنه لم يكن عندها علم فى شيء فأخبرتها وقالت:

غفلت وما أنست بالغافله ولكن لكى تحسبى عاقله
فما زال عقلك لبّاء عليك وما زلت مشغولة شاغله
أيجفوا ولكيز لبراقنا جفاءً وكنت له أهله
وبكر وعجل وشييانها ستعقر بينهم الراحله
فأجابتها ليلى تقول:

أمّ الأعرّ فضحتنى لا تعجلي إنى أبين القول عندك فاعقلي
برّاق سيدنا وفارس خيلنا وهو المطاعن فى مضيق الجحفل

وهو الضياء والبرق والقمر الذى عمّ الكواكب بالضياء الطول
وعماد هذا الحى فى مكروهه ومؤمل يرجوه كل مؤمل
أم الأغردعى ملامك واسمعي قولاً يقيئالست عنه بمعزل
وإنى أحنّ لما ذكرتى وإنما عرض العفيفة كالنسيج المفتل
ما حيلتى فى ما يراه أبى وهل يأتى المعالى واقف فى الأسفل

إن النساء أذلةٌ مستورةٌ يعرفن بالرأى الضعيف الأعزل

وكان البرّاق أيضًا قد لحقه من فراق ليلي سقمٌ عظيمٌ وغمٌ جسيمٌ وكنتم أمره عن كل أحدٍ وفي أثناء ذلك زاره كليب بن ربيعة ذات يوم لينظر ما هو عليه فسأله عن حاله وكان يعلم أنه لا يصير على فراق ليلي وكان البرّاق صديق له لا يكتم عنه أمرًا فأفاض إليه سره وشكا إليه وجده عليها فاغتمّ كليبٌ لذلك غمًا شديدًا وقال إن لم أنفع البرّاق بصدّاقتي مع الرحم الذي بيني وبينه فلا حاجة به إلى ذلك ثم خرج من عنده لا يردُّ جوابًا وانصرف إلى أبياته ودعا أخوته وأخوة البرّاق وأولاد عمه لكيز فحضرُوا وجلسوا بين يديه فأخبرهم بحال البرّاق واستشارهم في أمره وكان أول من تكلم عقيل بن لكيز أخو ليلي فقال:

الأمر فيه إليك يا ابن ربيعة فاحكم بما أحببت في الإنجاز
واترك لكيزًا والذي يختاره ليس اللكيز إذا حكمت بغاز

ثم تكلم صافي بن لكيز وقال يا كليب اقض ما أنت قاضٍ في اختنا فنحن لا نريد به بدلًا ولو كان صعلوكًا قليل المال فكيف وهو سيّد العشيرة وغاية كل طلب ثم أنشأ يقول:

أصدع برأيك يا ذا الرأى والأدب والخيل والسمر والهندية القضب
هذا أخونا ومولانا وسيدنا نرضى رضاه ولا نرضى برأى أبي
لا تركنن إلى الأملاك أنهم أهل الطرايف والعقبان والذهب
ونحن أهل فلاة لا نفارقها ولا نبالي من العلياء والرتب
فاصدع برأيك لا تخفيه مشتركا فأنت أولى بنا من سائر العرب

ثم تكلم عكرمة بن لكيز وقال قد فوّضنا الرأى إليك يا كليب فافعل ما تريد ودبر ما تختار ثم أنشأ يقول:

رفعنا إليك الرأى يا ابن ربيعة فدبر بما تختار خير مفوض

ولا تترك البراق فى غمراته
وشمر له من قبل الحاح مبغض
فبراق مولانا وفارس خيلنا
وصاحب طعن السمرا وضرب أبيض

ثم تكلم أرقم بن لكيز وقال إن البراق قرّة أعيننا ودعامة أمرنا فاقض برأيك يا
كليب وأنشأ يقول:

لعمرك ما البراق عنا بشاسع
ولا تارك أثقالنا فى المقاطع
ولكن جلاهم العشيّة بعدما
أتهم من الأعداء كل الفجائع
فارضوا لكيزاً باللقاح حلائباً
وسوقوا إليه صافنات الجرائع
امدّوا على البراق واستجلبوا له
فمستجلب الأشياء غير مسارع
ولا تستضيّقوا بعدها للمامة
وبعدركم منا مقالة وادع
وأنتم بنو عمّ جميعاً وأخوة
ليلى التى فيها جميع البدائع

ثم تكلم نويرة بن ربيعة وقال إنكم أطول الناس باعاً وأشدّهم امتناعاً وأما لكيز
فإذا جدنا له بالعطاء لا يحتاج الملوك بعدها ولا يخاف الفقر ثم أنشأ يقول:

إذا ما اجتمعنا فى صلاح أمورنا
فمن ذا الذى فى ما بنيناه يهدم
فنحن بنو عمّ وإخوتها الأولي
يجرّ لهم ذاك الخميس العرمم
فسيروا إلى ليلى لإصلاح شأنها
فكلكم فى ما ترون المحكم
فعندى لعمى بعد سبعين بكرة
ثانٍ لقاح مثلها الخيل تقلّم
وعند كليب مثلها ومهلل
فقوموا إليه مسرعين وقدموا

ثم تكلم مهلهل بن ربيعة وقال إنكم أحستم وأسأتم وأصبتم وأخطأتم
فحكّموا كليلاً وسلموا إليه الإبل فقال كليب قد أصاب المهلهل فى ما قال فقدموني
على ذلك وأعطوني موعداً معلوماً فقالوا اللهم نعم وتواعدوا إلى ثلاثة أيام لاستتمام
ما تفاوضوا به هذا ما كان من أمرهم ولنرجع الآن إلى حديث الملك عمرو بن ذى
صهبان خطيب ليلى فإنه كان قد أعدّ هدية حسنة أفخر ما يكون من الحلّى والحلل

واليواقيت والخليل والدروع والسيوف ووجه بها مسلمة بن مالك الغسانی وكان من أكابر دولته وأصحابه بجماعة من المتقدمين في بابه وأمرهم بسرعة المسير إلى ديار بنى وائل فامتلوا أمره وساروا من يومهم يقطعون الأرض حتى وصلوا إلى منازل القوم مسلمة المذكورة بربيعة بن مرة وقسم هدية الملك بين سادات القبيلة حسب ما أمره به مولاة وخصَّ البرَّاق بأحسنها وأفضلها وجدد الخطبة للملك بحضور ربيعة بن مرة وغيره من وجوه العشيرة فأنعم لكيز بزواج ابنته ليلي واشهد عليه القوم بذلك وقد انسرفؤه بمصاهرة عمرو بن ذى صهبان وطلب منه المهلة لجل أن يسعى بتجهيزها وإصلاح شأنها فسمح له وأمله إلى أجل معلوم ثم انصرف مسلمة مع من معه إلى الملك مبتهجين بما انعقد على أيديهم ولما بلغ البرَّاق ما كان من خطبة ليلي إلى الملك عمرو شق عليه ذلك وساءه أشد ما يكون وحقد على أهله وأضمر لهم الشر *

قال رواه الحديث وفي تلك الأيام ورد بابل عبَّاد الشبعى غلامٌ لهث يدعى معمر بن سوار وولده الحارث على عين قويرة يسقيانها فوردت عليها إبل عمران بن نبيه السدوسى وكان ذا ثروة في المال والولد وكان معها ابن له يُقال له الفضيل وغلامٌ له فاصطدمت الإبل وتضايق الغلامان فاقتتلا وأخذ غلام السدوسى حجراً فضرب به رأس غلام الضبعى فقتله فرمان الحارث بسهم فقتله وصرعه بين يدي مولاة وكان من رماة العرب فأقبل الفضيل على الحارث فقال له الحارث ارجع إنما قتلته إذ قتل غلامى فلم يلتفت إلى كلامه وتقدم قاصداً قتله وكان قد نهاه طويلاً وحذره سوء العاقبة فلم ينته فعند ذلك رماه الحارث بسهم آخر فاتبعه بغلامه وانقلب على إبله فساقها عطاشاً إلى منازل أبيه عبَّاد وإخوته فقالوا ما وراك فأخبرهم بقصته وأنشأ يقول:

قتلت ابن عمران الفضيل وعبد	بقتل غلامى معمر بن سوار
وما رمت قتلا للفضيل وإنما	أردت ذمامى إذ أخذت بشاري
رمى به سهماً فجعل حنقه	وذلك شيء لم يكن بخياري

إلا فاسعدوني للوقعة والبلى وإضمار خيلٍ قرّبت لمغار

فتفل أبوه في وجهه وقال لا أهلاً بك ولا سهلاً إذن والله أسلمك إلى عمران بن نبيه فيقتلك بولده ولا أبعث على قومي حرب سدوس فقال ولده ليس عمران يقتلني لوده ولا تسليمك إياي يدفع عنك حرب سدوس وقد وقعت في البلاء فالبس له جلباباً وبلغ الصريح إلى عمران بن نبيه فأغار في من حضر من قومه حتى وافى ولده مقتولاً فاحتمله على يديه وأنشأ يقول:

يا عين جودى بدمع منك هتان	على الفضيل السدوسى ابن عمران
فمن لعين بكت مما أضرب بهما	ومن لقلب كثير الشجو حران
جنت ربيعة أمراً لا تطيق له	أف لها من سحيقٍ عرضه دان
بالله ما الثار فى حرثٍ ووالده	ولا أخيه ولكن فى ابن روحان
أعنى الفتى السيد البراق وفارسهم	أو فى كليب فذاك الفارس الثاني
يا طى عدى جياذ الخيل واحتملي	بيض السيوف فإنى ثائر عان
أضحت سدوس من المغيار قد تيمت	من ليث غاباتها أو ليث فتيان
لهفى عليه وما لهفى بنافعة	إلا تكافح فرساناً بفرسان
لا بد من غارة شعواء يقدمها	نصرٌ وجبرٌ ومسعود بن فينان
وفارس الورد منصور وإخوته	من كل معتقل بالرمح طعان
ثاراً لا روع ذى مجدٍ وذى حسبٍ	معلل المجد من بكرٍ وكهلان
والله لا رقدت عينى ولا غفلت	حتى أرى الخيل تجرى فى الدم القاني

قال الراوى واجتمعت إلى عمران بن نبيه قبائل سدوس وقالوا الرأى غليك فمر بما شئت فقال لهم ليس فى ضبيعة كفواً لولدى ولست أَرْضى إلا بكليب بن ربيعة أو البراق بن روحان فقالوا ليس هذا برأى أيقُتل ابنك الحارث بن عباد وتريد التقاضى بكليب أو البراق هذا هو البغى الصريح فخذ فى ما لا ينكر عليك ودع الظلم

والجناية واعلم أن حرب بنى ضبيعة سجنى عليك حرب كليب وقومه الأرقام
والبراق وقومه بنى حنيقة وسائر بنى شيان ولا تستخف بذلك فإنه سيكون فأنشد
عمران يقول:

يا خليلي قربا لي جوادي	وقناني دنا لوان الطراد
قربا صارمى ورمحى فإني	عاد ثارى على وضع العباد
شر هذا الأنام خلقا وخلقا	ورضيع اللثام نسل عباد
الجبان النفور فى حومة الحر	ب أذل الفرسان يوم الجلال
ليست تأرى على ابن روحان كفوي	فاشتفت منه علة الأكباد
لست أرضى بحى آل عباد	ليس فيهم كفايتى ومرادي
فج الله حييهم بئس حي	جاء فيهمش الفضاء بالمرصاد
يا سدوسا أليس فيكم رشيد	ثاقب الرأى صادق الميعاد
كيف يرضى نصر بقتل فضيل	ماله لا يقود شعت الجياد
ما لنصر كذا وما بال جبر	اشتكى الصمت منهما وأنادي
أوحدانى وكنت غير وحيدي	يوم ضرب الظبى وطعن الصعاد

فلما سمع الرجالان وهما نصر بن مسعود وجبر بن طورة شعره أتيا عليه وقالوا
أنت سيدنا ونحن قد سلمناك أمرنا فافعل بما شئت فقال تأهبوا للغارة قالوا على من
تغير قال على كليب وقومه فقالوا لا نوافقك على ذلك بل نغير على أصحاب ثأرنا
بنى ضبيعة فوافقهما على ذلك مكرها وبلغ بنى ضبيعة كلام عمران بن نبيه وكرهته
التقاضى منهم بولده فأنفوا من ذلك واغتاضوا شديدا وقال عباد فى ذلك:

حضر السهاد وغاب طيب رقادي	لسمو عمران على الجواد
وأرى ابن مرة لا يزال مخالفا	بالقول بسمو شامخ الأطواد
بالله لا نرضى بفعلة حارث	ولنأتين به على ميعاد

ولا حقنن دماءنا ودماءكم
ولين رجعت إلى اللجاجة في اللقاء
فلتشرين بكاس حرب مرة
يا أيها المغرور بالحرب التي
قد جاءني القول الذي قد قلته
فاحذر على نصر وجبرس وأدخر
في ما جنى الجانى بغير مراد
وطعان فرسان يوم طراد
كأسا دهاقا قاطع الأكباد
فيها فنا الأرواح والأجساد
قول اليام مورث الأحقاد
كل العشيرة أننى لك هاد

ثم أن عبادًا وأكابر قومه من بنى شبيعة ويشكر وجَّهوا إلى عمران بن نبيه
يعتذرون عليه من قتل ولده وأنهم غير راضين بذلك وسألوه أن يكِّموه في الدبة
وأن يسلموه قاتل ولده فيقلته به فلما جاتهُ رسالتهم بكى على ولده وقال لا أقتل
الحارث بولدى ولست أقتل غلا كليًّا أو البراق ولما رجعت رسل بنى ضبيعة
بجواب عمران شمّرت للفتنة وأخذوا في إسراج الخيل واستحداد السيوف ونفض
الدروع * ثم اجتمع هؤلاء وهؤلاء والتقوا بمنور وهو وادٍ كثير الماء فاقتتلوا قتالًا
شديدًا حتى مال الضحى وافترقوا فعند ذلك نزل عمران بن نبيه وكان أشد قومه
بأسًا ونادى بالبراز فبرز إليه نؤيرة بن عباد وكان فارسًا شجاعًا فاقتتلا ساعة وظفر
عمران بنؤيرة فجندله صريعًا ونادى بالبراز فبرز إليه عامر بن عباد وكان أفرس
إخوته فاقتتلا ساعة وافترقا على سلامة ثم تعاطفا فاختلفت بينهما طعنتان كان
السابق فيهما عمران فأرادهُ سريعًا وتواترت خيل أولاد عباد على عمران فاتبع
بعضهم بعضًا وكانوا عشرة فتیان فلم يبقَ منهم إلا الحارث وهو أصغرهم سنًّا فلما
نادى عمران بالراز حرَّك الحارث جواده وأراد الخروج إليه فزجره أبوه وقال مهلاً
يا بنى دعنى وفارس سدوس أنا ابرز غليه فإنه لم يبقَ من إخوتك غيرك وإننى بعد
اليوم لضنين بك فقال الحارث يا أبى دعنى وغياه لحذ منه بدم إخوتى أو ألحقهم فما
للعيش بعدهم لذة وركض بجواده إليه واطردا ساعة فاختلفت بينهما طعنتان كان
السابق منهما الحارث فألقى عمران قتيلاً * ثم جال في الميدان ونادى بالبراز فبرز
إليه مالك بن عمران فاقتتلا ساعة ثم حمل عليه الحارث فأتبعه بأبيه عمران ونادى

بالبراز فبرز إليه أبو الأسود بن عمران فاعتركا ساعةً ثم أتبعه بهما وتواردت عليه أولاد عمران رجلاً بعد رجل فأتبع بعضهم بعضاً وكانوا تسعة وأبوهم العاشر *

قال الراوى فلما رأت عشائر سدوس ما حل بها حملت على فرسان ضبيعة وهزّت في أيديها رماحها. وانطبقت وعلا ضجيجها وصياحها وتعاركت أبطال القبيلتين في الكفاح والتقت بصدورها أسنة الرماح وقد عظمت الأهوال واقتربت الآجال وكثر القيل والقال وارتجّت الأرض من وقع حوافر الخيل وغطاهم الغبار فصار النهار كالليل وما زال الأمر بينهم على مثل ذلك حتى ولى النهار وأقبل الليل الحالك وكانت الدائرة على بنى ضبيعة فولّت مدبرة على أعقابها طالبة أرضها وهضابها . وكان قد قتل منها في ذلك اليوم جملة من الفرسان وأسّر سيدهم عقيل بن مروان. وكان الذى أسره نصر بن مسعود فى ذلك يقول نصر المذكور

سائل ضبيعة عنا يوم معركة	والخيل تبعد أحياناً وتقربُ
إن لم تلاقوا بنا جهداً فقد شهدت	فرسانكم أننى للشوس اغتصب
أليس عندى عقيلٌ فى سلاسله	على المذلة والتصغير مرتقب
نحن الكماة بنو الهيجاء تعرفنا	نشئ الكفاح إذا ما معشرٌ ركبوا
ما زال واحدنا كاللف إن عطفوا	وإن أغاروا وهبنا كل ما كسبوا
لا تحسبوا قتل عمران يفوت لكم	كلا وعندى جياذ الخيل والقضب
والسابقات لدن الخط مذخراً	وسادة قادة معروفة نجبُ
لأقتلن بعمران سراتكم	حتى نكون كنارٍ أكلها الحطب
فترجعون عبيداً إلى بنى أمة	وتحملون الذى لا تحمل العرب
لا تعجبون لما أفنت صوارمنا	وأن أصابوا فتى من جهلهم عجبوا
يا ويل أمكم ما تصنعون إذا	أغشيكُم من سدوسٍ ويحكم كتب
أترجعون من الموتى فنعذرکم	أو تصبرون لحربٍ بردها لهب

وبلغ الحارث بن عباد قوله فأجابه

سائل سدوس التى أفنى كتابها
إن لم تلاقوا بنا جهداً فقد شهدت
يا ويل أمكم من جمع سادتنا
فأبا عقيل فلا تفخر بسادتكم
فإن سلمنا فإننا سايرون لكم
وكل جرداء مثل السهم يکنفها
لا تحسبوا أننا قوم نفلتكم
كلا ورب القلاص الراقصات

طعن الرماح التى فى روسها شهب
فرسانكم أننى بالصبر معتصب
كتائباً كالربى والقطر ينسكب
فأنتم أنتم والدهر ينقلب
بكل هندية فى حدها شطب
من كل ناحية ليث له حسب
أو تهربون إذا ما أعوز الهرب
تهوى بها فتية غر إذا انتدبوا

قال واستمرت بنو ضبيعة فى هزيمتها حتى وصلت إلى ديارها ثم اجتمعت
سادات العشيرة وانتخبوا الحارث بن عباد وهو ابن ثلاثة عشر سنة وأقاموه مقام
سيدهم عقيل وكان الحارث المذكور مع صغر سنه شديد البأس كريماً غيوراً إلا أنه
لم يقيم فى القبيلة إلا أيام قليلة حتى أمرهم بالاستعداد وأخذ الأهبة على حرب
سدوس * فامثلوا أمره وأغاروا ذات يوم بجماعة من الفرسان على مراعى القوم
فأصابوا إبلاً ونعماً فأخذوها ووصل الخبر على سدوس بما كان فنهضوا فى الحال
وأغاروا خلف إبلهم فالتقوا بفرسان ضبيعة فلما رأت ضبيعة بأن سدوس قد
أدركتها انقسمت قسمين وافترقوا فرقتين فمنهم من لقى الخيل القادمة ومنهم من
ساق الإبل * ولما رأس سدوس منهم ذلك الحال انقسموا وتقدمت فرقة منهم
لقتال الفرسان ومنهم من لحق الإبل فاقتتلوا قتالاً شديداً وتطاردت الخيل وحمل
نصر بن مسعود على عباد الضبعى فطعنه طعنة سقط بها قتيلاً * ثم حمل على ابنه
الحارث فالتقاه الحارث ومال عليه بطعنة فأراد قتيلاً بأبيه عبداً واقتتلوا إلى آخر
النهار ثم افترقوا على غير غلبة.

قال وإن الخيل التى أغارت خلف الإبل استنقذتها ورجعت بها فالتقاها الحارث

ومن معه فأخذوا الإبل * ولما علم ابن نصر بن مسعود بقتل أبيه أسرع إلى أسيره عقيل بن مروان فقتله ولم يشعر به أحداً ولما علم قومه بذلك لاموه ولماً عنيفاً لأنهم كانوا يذموا قتل السير بعد مكثه في السجن عندهم * وكان أشدهم لوماً جبر بن طورة وبلغ ضبيعة قتل سيدهم عقيل فشدوا خيلهم وأغاروا على سدوس وكان بنو سدوس بعد قتل عقيل بن مروان قد علموا أن بنى ضبيعة لا بد أن يغيروا عليهم فاستعدوا لقتالهم فوافقتهم ضبيعة والتقت الخيلان فاقتتلوا قتالاً شديداً وحمل جندل بن عقيل على جبر بن طورة فطعنه طعنة ص قتلها بها فحمل معمر بن طورة وحمل معه مسعود بن جندل والحارث بن عباد فالتقوا واعتكروا شديداً وطعن مسعود جندلاً فاستنقذته ضبيعة وحمل الحارث على معمر فضربه ضربة قتلها بها ثم افترقوا وعاد الحارث بن عباد يجر قناته وهو يقول:

لقد شهدت حقاً سدوس بأنني	أنا الفارس المعتاد قطع الحناجر
تلقيت نصراً والمعر بعده	وارديته كرهاً برغم المنافر
وسوف يرى منصور منا عجائباً	بعد ذكرى فى جميع المحاضر
ولا بد من غير يتابع غيره	ويتبع أولادها وشيكاً باخر
ظننتم سدوساً إذ قتلتم والدي	وتسعة إخوانى أمدٌ بعاشر
فهلأ علمتم أن حولى فتية	تصول على بيض السيوف البواتر

واجتمعت بعد ذلك سدوس ويل الحراح وبنو جديلة وأغاروا على بنى ضبيعة وقتلوا منهم مقتلة هائلة وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم ولم يبقوا فيهم بقية وبلغ الصراخ إلى كليب وإخوته وسائر رهطه الأراقم وإلى قومهم بنى جشم فشدوا وأغاروا على كل صعب وذلول وأغارت عشاير تغلب كل من سمع الصوت ولحقوا بالقوم فى أريطة فاقتتلوا قتالاً شديداً واستنقذوا أموال قومهم وحريمهم ولم يذهب لم شيء * ثم تطاردت الخيلان فلما تباعدوا حمل منصور بن طورة أخو جبر على صافى بن لكيز فقتله وحمل منصور بن رياح البجيري فأتبعه به وحملت فرسان

جديلة على كليب وحمل أخوة نويرة وأولاد عمه ثم حمل الجراح وحملت الأرقام ثم حمل آل بُجَيْر وحمل الحى من جشم ثم حملت سدوس وحملت ضبيعة فاقتتلوا قتلاً شديداً حتى حجز بينهم الليل وكان يوماً عظيماً كثر فيه القتل والنهب ثم تفرقوا وانصرف كلٌّ منهم على حال سبيله هذا وقد تعاظمت الفتنة بين الحيين واتسعت واعبى التدبير فى الصلح بينهما حتى لحق شرهما من كان معترلاً عنهما كالبراق بن روحان فإنه كان قد اعتزل فى قومه بنى حنيفة وشبيب بن لهيم الطائى وهو خال البراق فإنه كان معترلاً أيضاً هو وأولاده واجتمعت قبائل طى ونزلت على شبيب المذكور لعظمة مكانه فيهم وجودة رأيه وفوضوا أمرهم إليه وأرادوا قيامه فيهم لجل قطع الأرحام بينه وبين قبائل وائل فكره شبيب ذلك وامتنع فألحوا عليه ولم يعذروه فقال ويحكم إنما نصبتمونى لتعظيم الفتنة بين الحيين منا ومنهم وإننى لا أفعل ذلك فقالوا قد رأينا ذلك ولا بد منه وليس بنا قلة ولا ذلة وإنما أردنا رياستك ومشورتك فأجابهم واتفقت قبائل طى وأحلافهم قضاة على فتنة ربيعة وانضم بعضهم إلى بعض وتجاوزت حللهم قال صاحب الحديث فلما بلغ قبائل ربيعة ما اتفقت عليه طى وأحلافهم وقيام شبيب الطائى فيهم كبر عليهم ذلك واستعظموه وقالوا قد جل الخطب فلا قرار لنا عليه واجتمع إلى البراق كليب وإخوته ورهطه الأرقام وسائر قبائل ربيعة وكان البراق معترلاً بقومه بنى أسد وبنى حنيفة لرغبة لكيز بابنته ليلى عن البراق وأنعامه بها للملك عمرو بن ذى صهبان كما تقدم القول على ذلك ولما أقبلوا على البراق رأوه فى نادٍ عظيم من قومه فسلموا عليه وجلسوا إلى جانبه فترحب بهم وأكرمهم وقال هل من علم يا بنى العم فقال كليب أعلم يا أبا النصر أن قبائل طى وقضاة قد اجتمعت على حربنا وأبيات ربيعة متفرقة وأنتم تعلمون عواقب هذه الأمور فاجعل لنا أمراً نكون عليه وأنشأ كليب يقول:

فشمر وبادر للقتال أبا النصر

إذا كان فيه آلة المجد والفخر

وليس لكم يا آل وائل من عذر

إليك أتينا مستجيرين للنصر

وما الناس إلا تابعون لواحد

فناد تحبك الصيد من آل وائل

فأجابه البرّاق يقول:

وهل أنا إلّا واحدٌ من ربّعة أعزُّ إذا عزُّوا وفخرهمُ فخري
أعزُّ إذا كانوا كراماً أعزّةً وآخر كل الخسر فى ساعة الخسر
سأمنحكم منى الذى تعرفونه وأشمر عن ساقى وأعلو على
وادعو بنى عمى جميعاً وإخوتي إلى موطن الهيجاء أو مرتفع الكرّ

فلما سمع كليب شعره علم ما هو منظوٍ عليه من الأحقاد فقال يا أبا النصر ما هذا مكان عتابٍ ولا حقدٍ ولكنه وقت القيام والاهتمام وإلّا تشتت شمل القبيلة فى الآفاق وشممت بنا الأعداء فقال البرّاق يا كليب ليس هذا حقدًا منى ولا خلافًا غير أنى لست أهلاً للرياسة ولا كفؤًا للقيام بهذا المر وما أنا غلا رجلٌ منكم فعليكم بليكنز بن مرّة زعيم بيوت ربّعة فهو أحق من كل أحد فى هذا الأمر * ولما علم كليب بان البرّاق لا يوافقهم على القيام فيهم انصرف بمن معه وبلغ شبيبا الطائي اجتماع سادات ربّعة إلى ابن أخته البرّاق وأنهم أرادوا قيامه فيهم فامتنع من ذلك لرغبة لكيز بابنته عنه أرسل بطلب خروجه إليه لجل أن يكونوا يدًا واحدة على قتال ربّعة وأنه إن أجاب سؤاله يزوجه بمن يشاء من أشراف بنات طى وأرسل إليه هذه الأبيات:

ألا أبلغ البرّاق منى نصيحةً بأنا إليكم أجمعين نسيرُ
قبايل طى كلها قد تجمعت وأحلافها جاءت لهنّ نغير
فهل لك تأتينا سريعاً مسلماً فإنى لكم ذو نصرة وظهير
ألم تذكروا لما جفاكم لكيزكم وأعرض عنكم والكلام كثير
هلمّ إليناكم أزواجك ابنةً لها شرفٌ فى طيها وطهور
ودع عنك إهمالاً فإنهم أقاطيع أرحامٍ وأنت نصير

فلما بلغت البيات البرّاق أخذته الغيرة وحمية النفس وزال ما كان فى قلبه من الحقد والنفور على قومه ثم إنه دفع البيات إلى أبيه روحان وقال له أجب صهرك

فقال يا بنى الخطاب إليك والجواب عليك فأجبه بها أنت أهله فأجاب البرّاق وخاله
يقول:

لعمري لست أترك آل قومي	وارحل عن فناءى أو أسير
بهم ذلى إذا ما كنت فيهم	على رغم العدى شرفاً خطير
وإنى ما أقمت معاً وأهلي	فلى مجدّ ولى خطرٌ كبير
أنزل بينهم إن كان يسرّ	وأرحل إن ألمّ بهم عسير
واترك معشرى وهُم أناسٌ	لهم طولٌ على الدنيا يدور
ألم تسمع أسنتهم لها في	تراقيكم وأضلعكم صرير
فكفّ الكفّ عن قومي وذرهـم	فسوف يرى فعالهم الضرير

فلما فرغ البرّاق من شعره وثب أبوه روحان فقبله بين عينيه ومدحه وأثنى عليه
وقال لله درك من سيد كريم وبطل عظيم لقد تكاملت فيك الرياسة والشجاعة
والفصاحة والبراعة فلك الفخر على جميع القبائل بالفضل والذكر الحميد الذى
ليس بزايل. ثم أمر له بمهرته الشبوب التى يجريها تسابق ريح الجنوب وهى من
أجود خيول العربان. أبوها جافل من خيل قضاة وأمها من خيل بنى شيان فعند
ذلك قام البرّاق إلى إخوته وأمرهم بالركوب والمسير على أبيات ربيعة يستصرخون
قبائلهم وأحلافهم للحرب فقال أبوه روحان هل تأمر إخوانك وتترك غلمانك
فقال:

أما العبيد فلا تدعى من الرسل	فما يجيب بنو شيان بالأسل
إلّا لأولادك الغر الكرام إذا	جاءت ترامى بهم مهريّة الإبل
واستقبلوا آل ذهل بالصريخ ضحى	وآل عجل إليك اليوم فى عجل
وآل عمران والرسلان قاطبة	تأتيك فى عجلٍ منهم بلا مهل

ولما فرغ البرّاق من إنشاده كسر قناته وأعطى كل واحدٍ من إخوته كعباً منها
وقال اركبوا وحثوا أفراسكم وقلدوا نجائبكم قلايد الجزع فى الاستنصار لقومهم

فامتلوا رائه وافترقوا فى احياء ربيعه فكان كل واحد منهم يقدم بكعب من قناه
أخيه وراحله مقلده فجزعت ربيعه لجزع البراق وأخذت أهبتها للحرب وجاءت
قبائل ربيعه من كل ناحيه وانضمت إلى البراق ثم نزلت سادات ربيعه بالراق
فاستقبلهم بأحسن القبول وأكرم وأعطى وكسا وقرى وعقدوا الرياسة له وسلموه
أمرهم ونهيمهم وبينما هم كذلك قدمت رسل شبيب بن لهيم الطائي المذكور آنفاً
يحثهم وينذرهم ويقول قد اجتمعت إلى قبائل طى وقضاعة من كل فج عميق
وخص البراق بأبيات يقول فيها:

أقروا سلامى على البراق من رجل	ذاكى العمومة من قوم ذوى كرم
هذه قبائل طى مع قضاعتهم	قد أشعلوا الحرب إذ قامت على
حلوا السهولة والغيطان واعتقلوا	من الرماح بأعلى الشم فى الأكم
فوطن النفس يا براق منتظراً	هذى الكتائب إذ تأتىك من أمم
يا ويح أمك من حشر الجنود ومن	خفق البنود ومن سفك الدما بدم
فليس يأتىك إلّا كل منتخب	وأرى العزيمة فى الهيجاء كالضرم
وكل لدن يرى ضوء السنان به	كلمع برق إذا ما لاح فى الظلم
فأجابه البراق يقول	

لقد وجدتك فى بعض الكلام عمي	إذا رحت تأخذ فى حرب لمنتقم
مخوفاً لى بجند لست أحسبهم	فى كل أصيد من عرب ومن عجم
فما لدى سوى قوم ذوى حسب	ربيعة الشم إذ قاموا على قدم
خلوا شيباً ووادى الراس واجتمعوا	إلى بالمال والأهلين والحرم
فاستقدموا طى ذى شيان قاطبة	وتغلب وسراة الحى من جشم
والوائليون قد قاموا بأجمعهم	من كل منتخب يأتىك عن أمم

وبعد ما رد البراق جواب خاله وانصرف رسوله نادى فى قومه بالرحيل وقال يا

بنى ذهل يا بنى عجل يا بنى مرة يا بنى الأزدي بنى ضرار يا بنى لحم يا بنى يشكر يا بنى ضبيعة يا بنى الحارث يا بنى جشم يا بنى نمر يا بنى قسم يا بنى عبس يا بنى مالك يا بنى بهران يا بنى مروان يا بنى على يا بنى الجراح قد علمتم كثرة قبائل طى وشدة بأسهم ونجدتهم فشدّوا بنا الخيل وابدواهم بالغارة فناهبوا من وقتهم وركبت الفرسان ظهور الخيل وأغاروا على طى وفى أوائلهم نويرة بن ربيعة وأخيه المهلهل والحارث بن عباد وفى آخرهم البراق وكليب يحث البراق على فتنة آل طى وقضاة وقال يا برّاق ناشدتك الله والرحم لا وأخذتنا بذنب رجل قد غاب عن رعدة وسقطت نفسه وذهبت همته وغرّه ما عند الملوك من الجاه والمال حتى كان من أمره ما كان فانصح قومك ولا تحذلم فقد أجابوا داعيك وأرادوا صنيعك وأقروا بفضلك ثم إن كليياً بعد ذلك اعتزل بأبيه وإخوته عن البراق وساروا فى أوایل العسكر وكان البراق قد تذكر صنيع طى وما عولت عليه من قتال ربيعة فالتهب فؤاده غيظاً وحنقاً ولحقته حمية الجاهلية فقال:

أقول لنفسى مرةً بعد مرةً	وسمر القنا فى الحى لا شك تلمعُ
أيا نفس رفقاً فى الوغى ومسرةً	فما كأسها إلّا من السم ينقع
إذا لم أقذ خيلاً إلى كل ضيغمٍ	فأكُلُ من لحم العداة وأشبع
فلا كسبت من الخيل أدهمّا	ولا عشت محموداً وعيشى موسّع
ولا قدت من أقصى البلاد طلائعاً	ولا صارماً غضباً من البيض يلمع
إذا لم أطا طيّاً وأحلافها معاً	قضاة بالأمر الذى يتوقع
فسيروا إلى طى لنخلى ديارهم	وتصبح من سكانها وهى بلقع
ولا تركوا شيخاً لطفى ولا فتى	ولا امرأة تمشى ولا الطفل يرضع

ثم أنهم جدوا فى قطع القفار حتى قاربوا ديار القوم فى نصف النهار فعند ذلك نادى البراق على من حوله من السادات والفرسان. وقال يا قوم إن مكان كليب ومن معه من إخوته وقومه الأراقم لا يقوم به إنسان. لأنهم أنموذج الفخر. وعمدة

أبطال هذا العصر وقد حضرني رأى في هذه الساعة فيه يكون النجاح على قتال آل طى وقضاعة * فقالوا الرأى إليك فى ما تريد لأننا طوع يديك وعن أمرك لا نحيد فقال انتخبوا من جياذ خيلكم واحملوا عليها من خفاف فرسان الكفاح وقدموهم أولاً ومتى توسطوا من حلل طى وضعوا فيهم السيوف والرماح فإذا ارتجت الناس وارتفع الصياح ثنوا إلينا أعنة خيلهم ونحن متأهبون فى هذه البطاح فإذا جاءت خيل الأعداء فى أثرهم حملنا عليهم من كل جانب وبذلنا فيهم سفار القنا والقواضب فقالوا نعم الرأى ثم إنهم انتخبوا جماعة من خفاف رجال القبائل على جياذ خيلهم الأصائل وأمرهم بالمسير والغارة من ذلك اليوم على حلل القوم فأغاروا ووضعوا فيهم السيوف المشرفيات وعلت الأصوات وتبادرت إليهم الناس من سائر الجهات إلى أن تكاثر العدد وتزايد المدد فعند ذلك انقلبت خيل البراق راجعة إلى وراها كما أمرها سيدها ومولاها فحلقتها جموع طى على الأعقاب مع من يتبعها من الأحلاف والأحزاب فصاح فيهم سيدهم شبيب بن لهيم وقد أنكر هذا الأمر غاية الإنكار وقال ارجعوا يا قوم فإن هذا مكر ابن أختى البراق ولا شك إنه مكن لكم فى بعض جوانب هذه القافر فوقف من سمع الصياح وارتجع ومن لم يسمع استمر فى غارته وأسرع وقد اخله فى القوم الطمع فلما توسطوا قبائل ربيعة التقتهم الفرسان وانطبقت عليهم من كل جانب ومكان وبادورهم بالضرب والطعان فاعتركوا ساعة وبعد ذلك ولّت فرسان طى مدبرة على الأعقاب وانقلبت ليشم انقلاب. لأنها رأت من البراق طعنًا مرا وضربًا لا تجد الأبطال عليه صبرا *

قال صاحب الحديث وكان شبيب الطائى قد حسب هذا الحساب. وقرى عنوان الكتاب. فصاح فى قبائل طى وإلى من اجتمع هناك من كل حى وأمرهم بأخذ الأهبة للقتال والحرب والنزال فاستعدت الرجال وركبت الأبطال فى ساعة الحال وقد غاصوا فى الحديد مسربلين بالزرد النضيد وفى أوائلهم سيدهم شبيب المذكور وأخيه عمرو الفارس المشهور وما أبعدوا عن المضارب حتى التقوا بخيل طى مهزومة وهى فى حالة التعس والويل وأبطال ربيعة من خلفها على ظهور الخيل * فعند ذلك ضجّت جموع طى من كل جانب لما رأت ما حل بقومها من الأهوال والمصايب وانقسمت فرق ومواكب وحمل شبيب وصاح فى الفرسان فعطفت الخيل

والتحكم الجيشان وتصادمت مع بعضها الشجعان ونهبت الأرواح من الأبدان
وطلع القتام إلى العنان وبان الشجاع من الجبان. وجرت الدما مثل الغدران وكانت
أبطال حى قد حملت بهم جرية وقلوب قوية فاستطالت على بنى ربيعة وقتلت منهم
مقتلة مريعة حتى حمل البراق ومن معه من الرفاق فاعتركوا ساعة إلى آخر النهار ثم
افترقوا عن غير غلب بعد قتل وجراح *

قال الراوى ولما انفصل القتال أقبل عمرو بن لھيم الطائى على أولاده وقال يا بنى
لم أعدكم إلا لأمر يكون فيه السرور وبلوغ الأرب. وتعرفون به بين قبائل وائل
وساير العرب. واعلموا أن بنى أختكم أشد الناس بأسا وأعظمهم مراسا. وقد
جاءتكم الآن بفتية كالسباع لا تختشى من الموت ولا ترتاع. وهم البراق وجنيد
وظليل وسالم وعمرو وأبوهم روحان فأنت يا ولدى نصير كفوا لبراق وأنت يا
ولدى غنم كفو جنيد وأنت يا سالم كفو سالم وأنت يا جبر كفو عمرو * وأنت يا
طوس كفو ظليل ومصعب وحبيب وعامر لنويرة وكليب والمهلhel فلما بلغ البراق
وصية عمرو لأولاده وتحريضه لهم على قتال البراق وإخوته خاصة نادى إخوته
جميعا وقال قد علمتم شأن هذا الرجل ووصيته لأولاده وتحريضه لهم علينا فإذا
نادى أحد منهم بالبراق فلا يبرز إليه أحد منكم فأننا أولى به لعل أرده سالما ولا
نفجع أمنا بقتل واحد من إخوتها فيكثر عويلها ويطول حزنها وهى غريبة بيننا ولما
كان فى اليوم الثانى التقى القوم فلما تقابل الحيان قام عمرو بن لهم ونادى ولده
نصيرا وقال ابرز إلى ابن أختك البراق فقد مكتكت الفرصة منه فبرز نصير وطلب
براز البراق فبرز إليه وهو يقول:

لرفع السيوف ووضع القناة
سواك وأبغضت طول الحيوية
ألست المجرب حرب الكماة

دعانى نصير إلى المكرمات
فيا أيها الخال ما شاقني
رويدك أخبر وأنت الخبير

فأجابه نصير يقول:

وأبى عمرو لا يخيب ظني

ما الذى قد رأى أبو النصر مني

أكرمُ السابقين كراماً وفراً
فعليت ما قضيت أنى أقضي

فأكرم الرمح يا ابن أختى مني
وعلى ما بنيت أنى ابني

فلما سمع البراق كلام خاله تبسم وأقبل عليه فتعاطفا فرسيهما ولم يضمّر كلٌّ
منهما لصاحبه شراً وافترقا على سلامة واقتتل القوم إلى غروب الشمس وراح كلٌّ
منهم على غير غلبة وأنشأ البراق يقول:

دعاني سيد الحيين منا
يقول إلى الوغى ذهلاً وعجلاً
وآل حنيفةً وبنى ضُبيع
وشوساً من بنى جشم تراها
وقوم بنى ربيعة آل قومي
إلى أخوالهم طى فاهدوا
صجناهم على جُرْدٍ عتاقٍ
ولولا صيحات أسعفتهم
لما رجعوا ولا عطفوا علينا
فبالك من صراخ وافتضح
على قبّ مسومةً عتاقٍ
تعطفُ بالقنا فى كل صبح
وقد زرنا الضحاة بنى لهيم
فيممت السنان لصدر عمرٍ
وقد جارت يداى على خميسٍ
وأفلت فارس الجراح مني
فقل لابن الدّعير الندل هلا

بنى أسد السמידع للمغار
بنى شيان فرسان الوقار
وأرقمها وحى بنى ضرار
غداة الروح كالأسد الضواري
تهيّئت للتحية والمزار
لهم طعنًا من العنوان واري
بأسيفٍ مهندةٍ قواري
جهاراً بالصراخ المستجار
وخافوا ضرب باترة الشفار
ونقع ثائرٍ وسط الديار
مقلّدةً أعتها كبار
وتحل فى العجاجة والغبار
فأحدرناهم فى كل عار
فطاح مجندلاً فى الصف عاري
بضربة باتر الحديدين فار
لضربة منصلٍ فوق السوار
تصبر فى الوغى مثل اصطباري

ألم ادعوه فى سبقٍ فولى
أنا ابن الشم من سلفى نزار
وحولى كل أروع وأئلى

فأجابه مالك بن الذعير يقول:

تبدت علوة خلف الستار
بوجهٍ مثل ضوء البرق طلق
ومقلة جودٍ من وحش نجد
تنسّمنا فتات المسك منها
فدع عنك الهوى بجمال خود
ولكن هاك معربةً جيادًا
تعادى فى ربيعة عاديات
نعللها لبان الحمر حتى
قرينها ربيعة يوم جاءت
وظلّت تطرق البراق جهراً
مضى فى النقع منهزماً حقيراً
ويحبر والديه وأى حي
ألم يرجع كليبٌ ردّ خوفاً
وخالفه الأراقم مع لكيز

كمثل الكبش يأذن بالحدار
كريم العرض معروف النجار
سدّيد الرأى مشدود الإزار

غداة تحملت بين الجواري
وشعرٍ كالدجى تحت الحمار
وثغرٍ مثل ساطعة الدراري
يفوح من المعر والعذار
مضت لسييلها بعد المزار
مولدةً مهاراً من مهار
بأيام المغار على نزار
ترى الألوان حمراً باصفرار
إلينا طالباتٍ أخذ ثار
فكيف نويرةٌ ولد الحمار
كمثل الماءٍ يحك فى القرار
أحق لوالديه بكل عار
لرمحى راخى الوركين خار
لخوف الطعن والعضب الفرار

قال ولما سمع كيب شعر مالك استشاط غضباً وحقد عليه وحلف أن لا يأكل ولا يشرب حتى يلقي مالك بن الذعير ويهين السيد منهم والأمير فعند ذلك انتهى إلى البراق وطلب منه أن يعيره فرسه الشبوب الذى وهبه له أبوه روحان. ولم يكن فى خيل العرب أسبق منه فى ذلك الزمان فأسلمه إليه ولم يكن يعلم ما يريد به. فشد

كليب على الشبوب ولبس لأمة حربيه ثم قصد أبيات بنى جديلة فى ظلام الليل الحالم وسأل بعض الرعاة فدلّهُ على خباء مالك فتقدم ونادى يا مالك فأجابه من أنت ومن تكون قال رجلٌ من أحلافك السكاسك والسكون. غُزيت هذه الليلة وقد فقد جميع مالى وساء حالى فأتيت إليك مستجيرًا فكن لى معينًا ونصيرًا وكان مالك من سادات فرسان الجاهلية موصوفًا بالنخوة والحمية فلما سمع مقاله شفق عليه ورثى لحاله ونهض فى الحال ولبس لأمة حربيه وجلاده وركب على ظهر جواده فلما برح به عن الحى وراءه مالك لا يقف ولا يسمع أنكر أمره وعلم أنه قد انخدع وقال ليس هذا الفرس من خيل قضاة وتالله أخشى أن يكون فارسه كليب وائل وهذا الفرس أبوه من خيلنا وأمه من خيل بنى شيبان ولعله الشبوب بنت جافل. فخاف مالك وانذر وارتد إلى الوراء وتأخر وفقد كليب وقع الفرس فثنى إليه عنان فرسه وقال لعلك أدركت للإبل حسًا قال لا ولكن تنبّهت بالشبوب وصورّت بين عيني كليبًا الأسد الوثوب قال أنا والله هو فاحذر لنفسك وحمل عليه وقال يا مالك أين رمحك الذى أرخى وركى كليب حتى سلح فى سرجه ثم أنزله عن جواده وجعل عمامته فى عنقه وراح به أسيرًا وترك جواده لرجع إلى قومه ولما وصل الجواد إليهم فى ليلته أيقنوا أن مالكا قد قتل وأن الذى دعاه وائل فصاحوا فى الناس بالغارة وقصدوا إلى طى وقضاة وأما كليب فإنه جاز بأسيره إلى آخر ليلته حتى أضاء عليه الصباح وإذا به ينظر عجاج الخيل فعلم أنها خيل قومه وكان أخواه نويرة والمهلhel قد اقتداه وأخبرا البراق فعلم أنه يريد بالفرس أن يهجم على مالك فى دار قومه فشد فرسه وصاح بالغارة فشدوا وأغاروا يلتمسون كليبًا فعند ذلك خلى كليب سبيل مالك وقال ارجع إلى قومك وأخبرهم إنما أضرمتها أنت وتولى حرّها غيرك فرجع مالك وأخبر قومه بالذى كان من كليب وأنذرهم بالخیل فاستحوا من الرجوع ثم التقى القوم فاقتتلوا قتالًا شديدًا إلى آخر النهار وافترقوا بعد قتل وجراح فلما كان فى اليوم الثانى برز عامر بن الذعير ونادى ببراز كليب فبرز إليه فالتقى الرجلان واقتتلا ساعة طويلة حتى عجب الناس من إقدامهما وامتناعهما وعجل بنو الذعير فحملت أخوة مالك على كليب وهم ستة شتر من واحدة وستة من أخرى ولما حملوا على كليب حمل ربيعة بن مرة وولده نويرة والمهلhel ولكيز وأولاده على بنى الذعير

وحمل القوم من الطرفين وأطردت خيل بنى الذهير والجديلين وخيل بنى مرة والأراقم واعتركوا ملياً ولما وقع الطراد حمل خزيمة على مالك بن الذعير فأراداهُ جريحاً واستنقذته إخوته حتى أعادوه إلى متن جواده وحمل نويرة على جرّاح بن الذعير قطعنه فأرادهُ قتيلاً وحمل مروان بن الذعير على لكيز بن مرة أبو ليلى فأرداه بطعنة فاستنقذه أخوه ربيعة وابنه كليب حتى استوى على جواده وحمل عمّار بن الذعير على المهلهل فأرداهُ صريعاً فاستنقذه أخوه نويرة وابن عمه خزيمة بن لكيز حتى استوى على جواده وحملت خيل بنى جديلة وخيل الأراقم فاقتتلوا ساعةً طويلةً وحمل نويرة على الحارث بن الذعير فأرادهُ قتيلاً واشتعلت الحرب بين الحيين واقتتلوا قتالاً شديداً وبرز الحارث بن عبّاد ونادى بالراز فبرز إليه الصامت السدوسى فاختلف بينهما ضربتان وكان السابق فيهما الحارث فأرداهُ قتيلاً ونادى بالراز فبرز إليه أخو المقتول ياس وكان أشجع من أخيه فاعتركا ساعةً ثم أتبعهُ الحارث بأخيه وتواترت خيل سدوس على الحارث بن عباد وهم عشرون فارساً فأهلكهم بالبراز وكانوا أشدّ سدوس وحمل السواد على السواد واقتتلوا حتى كادت الشمس تغيب فبرز عمرو بن لهيم الطائى جد البرّاق لأُمّه ونادى ببراز روحان بن أسد إليه فبرز وقال يا عمرو أما كفاك ما ترى بين الحيين حتى تدعو ببرازى خاصةً تم حمل كل واحدٍ منهما على صاحبه فاختلفت بينهما طعنتان كان السابق فيهما روحان فأرداهُ جريحاً وحملت أولادهُ كافةً على صهرهم فأشرعوا إليه الرماح وكان درعه متيناً لا تنفذه الأُسنة فألقوه على وجه الأرض فعندها حمل البرّاق وإخوته فأخذوا أباهم روحان وحملوا جدهم عمراً على جواده وردوه على أولادٍ سالمًا وكان ظليل بن روحان قد أُصيب بطعنةٍ كانت منيتهُ بها فلما علم البرّاق أن أخاه لا ينجو من لك الطعنة برز بين الصفين وقال يا بنى عمرو أما والله لقد فجعتم أختكم بقتل ولدها ولا تبرد فدعتها إلّا بقتل كفوه منكم ثم نادى ببراز خاله مصعب بن عمرو بن لهيم فبرز وحمل عليه البرّاق حملةً منكراً فأرداهُ قتيلاً واقتتل القوم يومهم قتالاً شديداً إلى أن حجز بينهم الليل وقال نصر يرثى أخاه مصعباً:

عين جودى بدمع منك يجرى للفتى فارس السدوس ابن عمرو

فارس الحفّلين منا ومنكم
كنت فى رقدةٍ فأيقظنى الآ
إن برّاق قد بدانى جهاراً
شمّروا للحرب آل لهيم
بسدوسٍ جميعها وجديلٍ
أرّفت للطعان عيني رويداً
ويرى الوائلى منا طعائنا
من جديل وال جرّاح قومي
سوف تأتيك كالمراعى سراعاً
وعلى الوفا لقولى وعهدى
فأجابه البرّاق رائيّاً أخاهُ ظليلاً:

عينٌ تجود وقلبٌ واله كمدٌ
غاب الكرى وتقضى النوم وانصرفت
يا عين أن تدمعى لا تقتفى ولها
فتلك فيها عزاءٌ عن أخى ولكم
فإن تسيروا إلينا من حبايلكم
ولست أحتم أنى غالبٌ كلّم
وكل حى يقضى بعض حاجته
عجل نصير لنقضى بعض حاجتنا
وأقدم بخيلك هذه خيلنا صفن
فإن تسيروا إلينا ترفدوا عجلًا

ومنيع الذمام فى كل عصرٍ
نّ مصاب الفتى شقيقى وذخري
بقتيل سميّد غير عمر
يا أبا النصر سوف تعرف نصري
سترى الذل فى صناديد بكر
سيعود الكرى وأقضى وتري
وضراباً كمثل إضرام جمر
وسدوسٍ وسنبس آل نصر
فى دجى الليل أو بساطع فجر
وترى فيهم تمامًا لنذري

لما ثوى فى الثرى الضرغامة الأسدُ
حبل التواصل لما أن دنا السهد
إن الشفاء جياذ الخيل تطرّد
فيها العزاء ومنكم ينقص العدد
وإن وقفتم فإنا نحوكم نرد
والله يعلم بالإنسان ما الأمد
فى تلك والدهر لا يبقى به أحد
وإن وقفت فهذه خيلنا تفد
شعثاء تنزع عن أقطابها اللبد
ضرباً يظلّ على هاماتكم يقد

وإن وقفتم فإننا سايرون لكم يا آل خالي مجرد الخيل تنجرد

قال صاحب الحديث واجتمع الكل بعد ذلك وصار بعضهم على بعضٍ والتقوا بدومة وهى على حدود بلاد أنهار واقتتلوا قتالاً شديداً وبرز صير بن عمرو ونادى ببراز البراق فأجابه وكانا كفوين كريمين فتحاملا ساعةً ولم يظفر أحدهما بالآخر وحملت أخوة نصير على البراق وحملت أخوة البراق حوله والتقى سالم بن روحان وغرسان بن عمرو بن لھيم الطائي واتفقت بينهما ضربتان فوقع سيف غرسان على سيف سالم فقطعه نصفين وحملت خيل بنى فرفص وهم سبعون فارساً وحملت خيل بنى أسد واطردت الخيل وتكافح نصير والأحجف وتضاربا بالسيف فسبقه نصير بضربةٍ أرداه بها قتيلاً فحمل البراق على الأهمس ابن عم نصير فقتله بابن عمه الأحجف وحمل السواد على السواد واقتتلوا قتالاً شديداً وراح الكل منهم على غير غلبة ثم أن نصيراً جمع بنى طى وقضاة وغزا بهم ديار ربيعة وتطرقت خيله إلى محل رجل من بنى جشم وأخذت إبلاً فارفع الصراخ وشدت قبائل ربيعة خيلها وأغارَت خلف الإبل وكان أول من لحق القوم البراق وإخوته فاسترجعوا الإبل من نصير وقومه بعد قتلٍ وجراحٍ وجاءت كتائب وائل مثل كراديس النمل والتقت الخيل واقتتلوا قتالاً شديداً ثم أفرقوا على غير غلبة *

قال الراوى وإن البراق بعد هذه الواقعة تجهز للحج وتخلف مكانه على قبائل ربيعة كليب فلما سمع نصير بن شبيب خال البراق بنهوض البراق إلى الحج وغيابه عن قومه وشاع ذلك فى أحياء طى اجتمع بأكابر قومه وأقبلوا عليه يحثونه وقالوا يا نصير اغتنم الفرصة فى بيوت ربيعة بعد أن غاب فارسهم وسيدهم فإنه لا يمكنك فرصةً مثلها فقال واسوءتاه تأمرونى أن أغتاب البراق وأخلفه فى موامه شرّ خلافةٍ فإننى لا أفعل ذلك أبداً ولا أسنّ عادة قبيحة فى العرب وكانت أمه كثيراً ما تعيره بقتل ولدها وتحثه على حرب ربيعة بعد البراق وهو يمتنع عن ذلك ويقول والله لو كنت أنا الغائب ما سمع البراق فى كلاماً ولا غزا أحداً من قومى وإنما يريدون أن تكسونى العار ولست أحمل كلاماً ولا أخلفه إلا خلافةً حسنة فلما رأت إصراره على

مخالفته لها مالت إلى كيد النساء وقالت والله لا أكيدنه مكيدة يكون فيها انحطاط قدره بين الناس وهو لا يشعر بها ثم إنها استحضرت بجارية لها وكانت عذرا وشدت لها على جمل سراً عن ولدها وقالت لها تقدمي نحو قبائل ربيعة ثم ارجعي فإذا كنت بحيث يسمع الداعي فصيحى واصرخى بأعلى صوتك ولا تشكى لمن لقيك حتى ترى مولاك نصيراً فإذا قال مالك فقولى له ركبت لزيارة مولاتى كريمة فلقينى المهلهل واستنزلنى عن جملى وفضحنى وهتك ستري وقال امضى واعلمى مولاك نصيراً وقولى له لنصنعن بأمه مثلما صنعنا بك ولا سلمت له بعد اليوم حرمة فإنه قد توقّف عن حربنا خوفاً وفزعاً واطمع العرب فى قومه وإذا علم مولاك ذلك فإنه سيأنف منه ويغير على المهلهل وإخوته وتكون النكاية فيهم أشدّ وأعظم فامتثلت الجارية كلامها ومضت ثم جاءت واستقبلت القوم وصرخت فجاءتها الغارات من كل جانب ولم تخبر بشيء حتى جاء مولاها فأنشأت الزور والبهتان على المهلهل فغضب نصير لذلك غضباً شديداً وقال إذا كان ذلك منهم ركبت عليهم وسببت حريمهم وفضحتهم أشدّ الفضيحة وأغار من ساعته على الأراقم وكانت قد اجتمعت إليه خيلٌ من طى وقضاة فتقدم صرم بن شبيب فى أول العسكر وهو يقول:

هلم إلى الثارات من آل أرقم وقتل كليب ثم قتل المهلهل
متى نظرت عينى كليياً أجبته على فعله من حد أبىض فيصل

وسار نصير بطى وقضاة وصبح بهم الأراقم رهط كليب فاقتطعوا من أموالهم وسبوا نساءهم وكانت فيهنّ ليلى العفيفة صاحبة البراق ثم أن الصراخ ارتفع فى قبائل ربيعة من كل فج عميق فركبت الفرسان ظهور الخيل وأغار نويرة فى جماعة من الأبطال فى أثر المال والحريم وكليب فى آخر الخيل وكان البراق قد رجع من الحجّ فى تلك الأيام وكان قد اعتراه مرضٌ فى أثناء الطرى من فرط حبه لبلى وشوقه إليها حتى ضعف عن الركوب للمرض والتعب وقلّ أكله وشربه فوصل إلى أهله وقد زاد مرضه حتى كاد لا يستطيع الركوب وإذا به يسمع الخبر. فانذهل وتحير والتهب

فؤاده وتحسر. وأمر بشد جواده ولبس لأمة حربيه وجلاده. وركب من تلك الساعة وأغار على آل طى وقضاة وهو يقول:

لأفرجنَّ اليوم كلَّ الغمم من سبيهم فى الفجر بيض الحرم
صبراً إلى ما ينظرون قدمي إنى أنا البراق فوق الأدهم
لأرجعنَّ اليوم ذات المبسم الواضح المنضد المنظم
بنت لكيز الوائلى الأرقم

قال وترامى جواد البراق فى عنانه حتى أدرك القوم وقد افترقوا عن قتل وجراح فنادى فى قومه فأتوا إليه وأحاطوا به وداروا من حواليه ثم نادى يا كليب استقم بمن معك من الفرسان وأنا أحمل بمن معى خلف المال والنسوان فاستقام كليب ومن معه وحمل البراق وإخوته وبنو عمه وسائر قومه على طرفٍ من الخيل واشتغل نصير بأواخر الخيل يقاتل كليياً ومهن معه ثم إن البراق أدرك المال والسبايا وكان معها أربعة آلاف عنان ونويرة مشغل بهم فحمل عليهم البراق وقتل كثيراً من أبطالهم. واسترجع طعائن قومه وأموالهم وأمر من يسير بها إلى منازلهم وإطلاقهم وذلك من بعد ما سلّم على ليلي وهنّأها. وشاهد حسنهما وسناهما ثم أغار حتى لحق بكليب وعشائره فوافق الجندين مفترقين فى تلك البطاح وبعض الخيل تطرد بالرماح وتأمّل وإذا بلكيز وشبيب صهره قد تنازلا بالسيوف وصرم بن شبيب قريبٌ منهما ينتظر غفلةً من لكيز فنادى بأخيه وإذا به قد أقبل وحمل على شبيب فطعنهُ أَرَدَاهُ قَتِيلًا ثم إن أخوة شبيب ثبتوا وتشجعوا ولم يولوا ويرجعوا ولما رأى البراق صبر أخواله وما فقد منهم من البطال وكثرة الجموع أشفق عليهم وتنحّى وكفّ فرسه وأمر رهطه وسائر قومه بالرجوع فلما رأى نويرة ذلك أقبل على البراق وقال أتريد أن تبقى على صناديد طى وقد اغتابوك فى قومك ولم يراعوا لك ذمة ولم يرحمونا وقتلوا رجالنا وأخذوا أموالنا وسبوا حريمنا وعيالنا فأنف البراق من كلام نويرة وحافظ نصير بمن معه من المقاتلة بقيّة يومه حتى حجز بينهم الليل وافترق القوم عن ضربٍ شديد.

قال ثم إن نصيراً أغار من ليلته وقصد قومًا من بنى ذهل فقتل منهم رجالًا كثيرة واستأسر منهم الأفرس ومالك أولاد سمير وانصرف إلى أهله وعند صوله فك أسيريه وجهزهما جهازًا حسنًا ومنَّ عليهما بنفسيهما وانصرفا فلهما جاوزا بعض الطريق إذا هما بالبراق في غارة من قومه وذلك أن البراق لما بلغه ما فعل نصيرا في بنى ذهل غضب غضبًا شديدًا وقال ألم يكفه اغتيابى في قومي وأغارته عليهم بعدى حتى يغير على بنى ذهل في ظلام الليل ويقتل منهم ويستأسر أما كان لهم أذنٌ واعيةٌ عندما أحاطت بهم خيل وائل وضيق عليهم فكفيتها عنهم شفقةً منى وحلةً للرحم.

قال ثم إن الرجلين دلّاهُ على حلةٍ من حلل طى كانت تلك الجوار فوجه البراق إليها بقومه فقتلوا منهم رجالًا واسروا وانصرفوا فلما كان في بعض الطريق أمر البراق بإعتاق الأسرى وقال لهم لم تكن لى بذلك إرادةً إلّا إذا فعل قومكم فعلةً جازيناهم بمثلها ثم إن البراق جمع قومه وأغار على أحواله وكان قد حنق على نصير حنقًا شديدًا لا غتيابه له فلما كان في بعض الطريق فتدب من بيوت بنى عجل وجشم والنمر وتغلب جماعة وجعل عليهم نورية بن ربيعة وقال كن أنت من خلف على مسافةٍ منا فربما تكون الدائرة علينا فتعطفون ولا يفوتكم مهربٌ وسار البراق بجموع ربيعة فلقيتهم جموع طى ومقدمهم نصير فالتقى الجمع بالجمع واقتتلوا قتالًا شديدًا فانهزمت خيل ربيعة فعطف عليها نورية ومن معه من أبطال الحرب واختلف الطعن والضرب والتحم القوم بالقوم في لك السهول وتطاعنوا بالرماح والنصول حتى ذهلت العقول وكاد الرجل منهم يضرب صاحبه وهو لا يعرفه من ازدحام الموكب. وكثرة الطلايع والكتائب هذا وقد وقع الخوف في قلوب الرجال من هول ما أبصرت. وكلت الخيل من كثرة المعركة وقصّرت وقاتل البراق في ذلك اليوم القتال الهائل وأهلك بسيفهش كل بطلٍ حلالٍ وما زال القوم في قتال وصدام. وعراك والتزام إلى أن ولت جموع طى وقضاعة وطلبت الفرار من تلك الساعة فلحققتها عساكر ربيعة وفي أوایلها كليب والمهلهل. وكان يومًا عظيمًا على الأعداء لم يسمع بمثله في الزمان الأول. وقد تمزّق جمعهم وتفرقوا في تلك البرارى

والقيعان. وتخلوا عن الأموال والنسوان فأخذتها ربيعة ولم تترك لهم امرأة ولا عبداً ولا مالا ولا أمة ولا شاة ولا عقالا ثم إنهم بعد ذلك انصرفوا طالبين الديار. وهم في غاية الفرح والاستبشار.

قال فلما كانوا في أثناء الطريق استحى البراق من حريم أخواله واعتذر إليهنَّ وردهنَّ إلى أهلهنَّ وردَّ المال معهنَّ وقال أبلغوا آل هليم. ومن جاورهم من سادات تلك الأقاليم أننى لم يكن لى إرادة بما كان ولكن أردت أن أجازيهم بمثل ما فعلوا فى حقى من الاحتقار والهوان فلما بلغهم كلامه وجاءت إليهم نساؤهم وأموالهم شكروه على ذلك الصنيع وأقروا له بالفضل والشرف الرفيع وانصرفت الفتنة بينه وبين أخواله وخلّانه واصطلحوا وتصافوا ووفدوا عليه فأكرمهم ووفد عليهم فأكرموا وعظموا شأنه.

قال ابن نافع وإن البراق بعد انصراف الناس من عنده وخلوّه بنفسه اشتد به حب لىلى وعظم عليه الحال حتى لزم بيته وامتنع عن الخروج وهو كاتم سره لا يبوح به على أحدٍ إلّا إلى كليب وكان كليب قد أنكر غيبة البراق فزاره على منزله فوجده فى حالٍ ضعيفة فشقَّ عليه ذلك وأخذ يتلطف بخاطره ويسليه على ما هو فيه ثم خرج من عنده واجتمع بعمه لكيز بن مرة وقال يا عم مالك لا ترجع عما فى نفسك وتزوّج البراق بلىلى فهو أحقُّ من غيره فقال لكيز وأفضيحتاه كيف يكون ذلك أتأخذون هدية الملك وتعدونه بالزواج ثم لكيز على ابن أخيه بكلام فاحش فقال كليب والله لين لم توافق البراق على مراده وتزوجه بلىلى لأبلغنه ما فى نفسه * ثم أتى إلى البراق وقال له هل لك أن تدع رأى لكيز وتزوّج بلىلى قال يا كليب إن ذلك غاية قصدى ومرادى. وفيه مسرة فؤادى. ولكن كيف يمكن الحصول على هذا المر بعدما قسمت هدية الملك عمرو ثم تنفس الصعداء وأنشد من كبد حراً.

الصبر أحزم من بعض الأقاويل	ومن فظايح هاتيك الأفاعيل
إنى وإن كنت أصبحت الغداة بها	أشقى أسير ب قيد الحب مغلول

حتى أوسد خمسات الأناميل
إذا ربيعة فاضت بالأباطيل

فليس عندى وفاء العهد منتزعاً
ماذا تقول سراة الحى من مضرٍ

ثم قال يا كليب مالى عنها صبر ولا سلوان لأنها نتيجة عصرها وفريدة هذا الزمان ثم جاش به حب لىلى فعظم عليه المر وعدم الصبر وكثر غشيانه فأشفق عليه أهله وخلاته فدعا كليب أبا البراق مع إخوته وطلب منهم أن يكونوا عوناً له على مصيبتهم فقال لهم أبوهم روحان يا أولادى التمسوا ما يكون لأخيكم فيه النجاح وبلوغ الآمال فتكلم ولده جنيد وقال:

وتبغى سديد الرأى يا لك من فكر
مخافة ذم دايماً أبداً الدهر
وصرح بما أحبته فى أبى النصر
وأى صلاح والأنام به تدري

تقسّم فى أحيان ربيعة تحفة
تقطعت الأنساب منها إلى أخى
تجير أبا عمرو فإنك مخبر
أبو النصر نصر فيه أى معونة

ثم تكلم أخوه نصير وأنشأ يقول:

يريدون الوفاء على الهلاك
يرتعن فى وادى الآراك
قوياً للضراب وللصكاك
والألمعاد إلى المحاك
وكيف الفعل من بعد الشراك

لحى الله الوفاء وكل قوم
أفيضوا باللقاح إلى لكير
يبيح لبانها ويشد باعاً
فإن يقبل مشورتنا قبلنا
تريدون المكارم آل قومي

ثم تكلم غرسان وأنشأ يقول:

وحتته فى ما يشا ويشير
مقاصد فيها لا يزال يسير
نسارع فى ما يشتهى ونظير

لكل امرئ رأى له ومشورة
وما من فتى إلّا له من أموره
فإن يرد البراق شيئاً فإننا

وإن لم يَرِدْ شيئًا فما بعد قولكم وها هو فيكم حاكمٌ وأمير

فالتفت روحان إلى كليب وقال لا تفارق البرّاق ولا تترك زيارته إلى أن نرى ما يكون * وشاع خبر البراق في بنى وائل * وتحدثت فيه سادات القبائل * فاجتمعوا وأقبلوا على لكيز ووبخوه بالكلام وأكثروا عليه العتب والملام وقالوا لا عذر لك من أن لا تزوج البرّاق بليلى لأنه ابن عمها وهو أحق بها من غيره وأولى وإن في ذلك علو شأنك ورفعة قدرك ومكانك فأى فخر يكون لك أعظم من هذا إذا أصبح البرّاق صهرك وأهل العشيرة أنصارك وطائعين أمرك وكيف لا يكون ذلك وهو عين هذا العصر ومنتهى الشرف والفخر وقد قرت له جميع الناس بالفصاحة وحسن الشيم والمروة وعلو الهمم واشتهر بالفروسية والكرم كاشتهار العلم حتى ساد وتقدم على سادات العرب والعجم ولولاه لم يكن لنا اسم يذكر وكنا افتضحنا وصرنا مثلاً عند عرب البر الأقفر وإن كنت تفتخر بمصاهرة عمرو بن ذى صهبان وتفضله على ابن أخيك كونه ملك من ملوك هذا الزمان فلا يغرنك سلطانه. وعظمته ومكانه. فإن ابتك ما تكون عنده إلا كمثّل بعض الخدام وهو لا يعرف لك قدرٌ ولا مقام وتكون قد ضبعت مثل هذا البطل الهمام والسد الضرغام *

قال فلما سمع لكيز كلامه قال هذا أمر فات لم أقدر عليه يعد ما أنعمت على الملك بزواجها فاستشاطوا غضبًا من كلامه وتركوه وآلت ربيعة على مقاطعة لكيز أبدًا ثم إن لكيز تجهّز من يومه وسار بأهل بيته قاصدًا الملك عمرو بن ذى صهبان على أن أقبل على نعيم بن مهلة الأزدي وهو في حدود الملك عمرو وكان صديقًا له فأنزله وأكرمه وبقي عنده أيامًا *

قال وأعجب ما اتفق إن رجلًا من أشراف بنى أنمار يقال له كريم ابن الأعرج كان متوجهًا على شَهْرَمِيَه ملك الفرس فجاء طريقه على حلة نعيم المذكور وكان قد أمسى عليه المسا فقصد دار نعيم ونزل عنده للمبيت تلك الليلة وكانت قبائل أنمار وإياد في جوار الملك شهرميه وكان يستعين بهم على خدمته في بعض الأحوال فاشتغل نعيم تلك الليلة بلكيز وأهل بيته ولم يلتفت على كريم ابن الأعرج فلما

أصبح القوم سألوا نعيمًا ما الذى أشغله عنهم فقال عندى رجلٌ من ربيعة وأخبرهم به وقص عليهم قصته وكان النمارى قد سمع عن ليلى بوصفٍ كثير من المحاسن والجمال فقال والله لا جئيت الملك شهرميه بأحسن من هذه التحفة ثم شدَّ وركب راحلته وأسرع فى سيره حتى قدم على مدينة الملك واستأذن الحاجب فى الدخول عليه لأمرٍ ضرورى وصار الحاجب على الملك فاعلمه فقال أدخله إلى قاعة السر فأدخله على خلوة سره وأمر له بالشراب إليه ثم دعا بوزيره برد بن طريح الأيادى فلما حضر حدثه بخبر الأعرابى فدخل عليه برد واستنطقه فتكلم بها عنده ووصف له عن ليلى وحسنها فقال برد وكيف رأى فى تحصيلها فقال يكتب الملك إلى عامله عمرو بن ذى صهبان أمرًا بوصولها إليه فقال أحسنت وخرج على الملك فأخبره بذلك فتبسم ضاحكًا وكان حكيماً حاذقًا يشتهى نظر الحسان ثم إنه كتب من وقته على الملك عمرو كتابًا يطلب منه تجهيز ليلى وإرسالها إليه فى أسرع ما يكون فلما وقف عمر على كتاب الملك ضاق صدره وحر فى أمره لأنه كان يحبها ويتمناها لنفسه فأرسل إليه يقول أنى أوافقك على ذلك غير أنى لا أعلم هل يوافق أهلها على مصاهرة لملك أم تكره العرب مصاهرة العجم ولكننى سأبذل فى ذلك غاية اجتهدى ولما وقف الملك شهرميه على هذا الخطاب جدد المواقف فى خطبة ليلى وأرسل كريم المذكور مع أخوى وزيره برد بن طريح الأيادى فلما حضر حدثه بخبر الأعرابى فدخل عليه برد واستنطقه فتكلم بها عنده ووصف له عن ليلى وحسنها فقال برد وكيف رأى فى تحصيلها فقال يكتب الملك إلى عامله عمرو بن ذى صهبان أمرًا بوصولها إليه فقال أحسنت وخرج إلى الملك فأخبره بذلك فتبسم ضاحكًا وكان حكيماً حاذقًا يشتهى نظر الحسان ثم إنه كتب فى وقته على الملك عمرو كتابًا يطلب منه تجهيز ليلى وإرسالها إليه فى أسرع ما يكون فلما وقف عمر على كتاب الملك ضاق صدره وحر فى أمره لأنه كان يحبها ويتمناها لنفسه فأرسل إليه يقول إنى أوافقك على ذلك غير أنى لا أعلم هل يوافق أهلها على مصاهرة الملك أم تكره العرب مصاهرة العجم ولكننى سأبذل فى ذلك غاية اجتهدى ولما وقف الملك شهرميه على هذا

الخطاب جدد المواثيق في خطبة ليلي وأرسل كريم المذكور مع أخوى وزيره برد وهما الربيع والحُيَيش ابني طريح بجيشٍ عظيم وأمرهما أن يخطبا له ليلي فإن امتنع أهلها وتحدّت ربيعة لهم يقتلون الرجال ويسبون الحريم ويأتونه بليلى سبيّة فامثلوا وساروا إلى أن وصلوا إلى حلة نعيم الأزدي التي فيها ليلي ونزلوا عليه وكان عمرو بن ذى صهبان قد جدّد خطبة ليلي على الملك شهرميه واستشار أبوها لكيز في ذلك فأبى وقال إما بكفيك أنى هجرت قومي وهجروني ومنعتها عن سيد العرب البرّاق بن روحان لجلك ووقفت عند قولي وأنعمي بها لك حتى نرفع خبرها إلى ملك الفرس وتريد تزويجها بمن لا يوافقها. ذلك لا يكون وإما أنت فلنا عذرٌ الآن بامتناعنا عنك أيضًا نظرًا لما ظهر منكض وقد بطّلت الخطبة عن كليكما فأخذ عمرو يعتذر غليه بأن ليس له من ذلك خبر وإنما السبب فيه كريم الأنباري وهو الذي رفع خبرها إلى الملك شهرميه حتى كان ما كان فقال لكيز أما أنت فقد بلغنا من لدنك معذرة ولم يبق لك حقّ علينا وأما هؤلاء فلا أهلاً ولا سهلاً بهم قال وفي أثناء ذلك وصل الربيع والحُيَيش بمن معهما من العسكر إلى حلة نعيم كما تقدم الكلام ولما بلغهما جواب لكيز لعمر وامتناعه عن زواج ليلي إلى الملك شهرميه استشاطا غضبًا وأمرا العساكر بالهجوم على دار نعيم بن مهلة واستخرجوا ليلي قوةً واقتدارًا فعند ذلك ركب لكيز وأولاده وجارهم نعيم بن مهلة بقومه وكان يركب في خمسية فارس وانتشبت الحرب بين القوم واشتدّ القتال فاستظهرت أصحاب الملك شهرميه وحلّوا الموال وسبوا النساء وفيهنّ ليلي العفيفة وكان لكيز قد حمل هو وأولاده ونعيم وأولاده وفرسانٌ من قومه فقتلوا الحُيَيش بن طريح وقتل خزيمة بن لكيز أخو ليلي وقتل كريم بن الأعرج الذي كان السبب في هذا المر وانجرح لكيز وبأنه عليل وسار الجند بالأموال والسبايا *

قال فتقدم الربيع بن طريح وسأل عن ليلي فدلته بعض النساء عليها فتقدم إليها فوجدها تبكى وتتوح على ما حلّ بها وأصابها من الهوان فأخذ يعتذر لها ويتطلف بخاطرها وشد لها بنفسه على جمل من نجائب الإبل وأناخه قريبًا منها وأولاها ظهره كرامةً ووقارًا وقال إنه لم يهن على ما جرى ولا كنت أريد هذا وغنه عليّض لأشدّ

المكروه وإنما كان السبب فيه كريم بن الأعرج وقد كان جزاءه ما كان فربّ حافر حفرة وقع فيها فذهبت مثلاً وركبت ليلي ودموعها تنحدر على صدرها ثم أطلق الربيع بقيّة النساء وجميع الأموال وقال هذه حاجة الملك وتوجه بها إلى ديار فارس وأنشأ يقول:

دعاني للقطيعة منه بردٌ	وبردٌ عندنا أى المطاع
وكنافى النموّ وفى المعالي	فصرنا اليوم من سقط المتاع
وما كانت قبائل آل طيٍّ	وتغلب تستعيز من القراع
ولكن فى لكيزٍ شرّ فعلٍ	فعلنا وهو محمود الطباع
وفى البراق والساعى كليبٍ	كذا ونويرة الحامى الرباع

قال ثم إن الربيع جد فى مسيره حتى قرب من مدينة الملك شهرميه فأرسل إلى أخيه برد يهنيه بالظفر ويعزيه بأخيه فدخل برد على الملك وقال له فى هذه الليلة تكون ليلى فى دارك وقد أمرت بإصلاح شأنها أفا رفعها إليك أم أدخلها خلوة فى دارى وتركب إليها أنت فقال إن الأوفق تبقى فى بيتك أياماً حتى ترتاح من تعب الطريق ولربما أنها لا ترضى وأنا لا أغضبها على نفسها فتأنّ فى أمرك ولا تعجل ثم أمر له بعطية جزيلة فخرج من عنده وأخذ معه غلمان الملك لجل لقائها فلما قدمت سار بها إلى داره وأمر أهله بإكرامها. وحفظ مقامها. وقص عليهم قصتها بتمامها وطلب منهم أن يزينوها بأحسن المصاغ ويلبسوها أحسن الملبوس فقامت زوجته وأخذتها من يدها وأدخلتها إلى غرفة صغيرة قد أعدتها لها ثم جاءت بعد قليل إلى زوجها وقالت له هيهات أين منك هذا الحديث أو كان الملك يرغب فى معاشرة الموتى فإنها فى حالة لا توصف من شدة الحزن وقد منعنا نظرها وهى لا تعى على أحد فاغتم لذلك وقال إن أرادت السلامة ورفعة المقام فعليها أن تسمع وتطيع وإلا فلاعذبنها العذاب الشنيع ثم قام ودخل عليها فى غرفتها وتهدها ورغبها فى الملك وشوّقها إلى نعيمه فلما أكثر عليها الكلام تذكرت المعاهد والطول وتنهدت من فؤادٍ متبول وأنشأت تقول:

اصبر ستجزي الذى أسفلت من
 هل مخبرلى برأقا وإخوته
 صنع الأيادى شرّ الناس كلهم
 لا تخذلوا لى لكيزا يا بنى أسد
 بما فعلت بلا ريث ولأمهل
 أسد العرين أولى الغارات بالأسل
 هيهات برأق عنى اليوم فى شغل
 واستصعبوا مضرا يأتون فى عجل

فقال برد لم جعلت الأيادى شرّ الناس وأنت تعلمين أنى منتسب إلى شيان وإياد
 فقالت وكيف لا يكون ذلك وأنشأت تقول:

لو كنت منتسباً إلى شيان
 وعرضت عن فعل الخناء أخا الخنا
 لكن خناوءك فى فنائك لم يزل
 فلك الجزاء بكل ما أسلفته
 يال برأق السميدع فى الوغى
 شدّثوا جياذ الخيل وابتونى بها
 وغذا رايت نواصياً مفروقةً
 فيها بنو مضرٍ وآل ربيعة
 فأثبت عدمك من قرينٍ واستقم
 لأسود حرب ليس يفشلها اللقا
 لحفظت فرعهم بكل لسان
 وغضضت طرفاً مستحى الأجفان
 وسلكت طرق منور بن عنان
 فى آل وائل من جزاء هوان
 ونويرة العالى على الفرسان
 مشدودةً لتكافح الأقران
 من كل جبهة شيطمٍ وحصان
 لطعان كل غضنفرٍ مطعان
 للمشوس من مضرٍ ومن عدنان
 بصفائح يـمـضين كالنيران

قال صاحب الحديث فلما سمع شعرها أنف من قولها فى آخره عد منك من قرين
 فقال ويحك أبرد بن طريح ابن أتان. أليس إياد وربيعة إخوان قالت صدقت ولكنك
 يا ابن الفارسية لست لإياد ولو كنت لهم ما رضيت فى حرمة ربيعة هذا الفعل
 ولكنك زعيمٌ فازداد غيظاً وأمر بها فقيدت وضربت ضرباً إليماً والملك لا يشعر بشيء
 من ذلك وسألته زوجته الشفاعة فلم يشفعها فأقبلت عليها وقالت يا أختاه قد
 بلغت فى عرضك عذراً فأقبل نصيحتى فليس هذا أوان عفةٍ لكن كان لك ذلك لو

كنت في رجالك وعشيرتك فقلت العذاب أهون على مما يطلبه مني ثم بكت
وأنشأت تقول:

ليت البراق علينا فترى	ما أقاسى من بلاء وعنا
يا كلياً يا عقيلاً اخوتي	يا جنيداً أسعدوني بالبكا
عُذِّبت اختكم يا ويلكم	بغذات النكر صبحاً ومسا
غللوني قيدوني واضربوا ملمس	اللعة منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربني	ومعى بعض حساسات الحيا
يكذب الأعجم ما يقربني	كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيـتكم	ومرير الموت عندي قد حلا
أتلدون علينا فارساً	يا بنى أنمار يا أهل الخنا
يا إياد خسرت صفقتكم	ومرى المنظر من برد العمى
يا بنى الأعياص إمّا تقطعوا	لبنى عدنان أسباب الرجا
فاصطباراً وعزاً حسناً	كل نصر بعد ضرر برتجي
قل لعدنان فديتم شمرنا	لبنى الأعجام تشمير الوحي
واعقدوا الرايات فى أقطارها	واشتهروا البيض وسروا فى الضحى
يا بنى تغلب سيروا وانصروا	وذروا الغفلة عنكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم	وعليكم ما بقيتم فى الورى

قال ابن نافع فلما سمعت امرأة برد بن طريح شعرها رجعت إلى بيتها وأيقنت
الفتنة الطويلة وروت الشعر لقينة لها وقالت أنشديه مولاك خير بن طريح فانتهدت
إليه وأنشدته الشعر فقال قبح الله رأى أخى برد. أما كان له كفاية بما أغشانا من
العار بتقييدها وضربها أمثلنا من يدل على حريم ربيعة أو يرضى فيهن الفواحش إن
ذلك لبئسما فعل وسيدوق ثمرة ما جناه بيده وتالله لقد ألحق علينا حرب ربيعة

وذكرنا وإيَّاهم ما أنسانا وأنساهم الدهر من وقائع وائل مع طى وسدوس. التي أفنت القبائل وشيبت الرؤوس. وأخلتتنا عن أهلنا وبلادنا ونفتنا من ديار آبائنا وأجدادنا فوالله لتأنفنَّ لسبى ليلي صناديد وائل وتغضب لها جميع القبائل من ولد عدنان وسائر العربان ثم إنه خرج إلى الملك شهرميه فاستأذن حاجبه ودخل عليه وأعلمه بفعل أخيه مع ليلي وأنشده شعرها بالفارسية فلامه الملك لومًا شديدًا وقال لقد كنا فى غنى عنها ولا بد عن مسير قومها إلينا ومحاربتهم إيانا ثم أمر لها بدارٍ حسنة ونقلها إليها وأجرى لها من المكارم والنفقات ما لم يجره لغيرها *

قال الراوى هذا ما كان من ليلي وأما ما كان من حديث أبيها لكيز فلنه بعد سبى ابنته. استحى من الرجوع إلى أهله وعشرته فركب من يومه وأخذ أهله وحرime وتوجه إلى عمرو بن ذى صهبان وحدثه بما جرى وكان وسأله النصرة والنجدة فى خلاص ليلي من السبى والشدة وقال إنما أنت كنت السبب فى سبيها ووصولها إلى أرض العجم وتلك البلاد فهل لك أن تمدنى بما تقدر عليه من الجيوش والأجناد أو تسير معنا لعلنا نستنقذها دون اطلاع قومنا فإننا فى غنا عنهم. لأنه إذا بلغهم ذلك فيشتمون مع ما فعلته من هجرى إيَّاهم ومقاطعتى لهم وإيثارك ليلي دون كل أحد منهم. فقال عمرو صدقت إنى كنت السبب فى سبيها إلى بلاد الأعاجم. ولولا مصاهرتى ما خَرَجْتَ من ديارها ولا هجرتَ قومك وتلك المعالم. غير إنه يمنعنى من نصرتك أنى من عمال الملوك الأكاسرة. ولا تليق بى المكاشفة والمظاهرة ولو مددتك بجيشٍ قليل أخفيه عن الملك لم يكن لك فيه كفايةٌ ولا تقضى به وطراً لأن هذا الملك عنده جيوشٌ تملأ الفضاء طولاً وعرضاً وحوله من العرب من قومنا وقومكم ما يساوى جنود العجم ثم أنشد وقال *

وكم دون أرض الفرس من آل	إناسا يجديون اللقاء والتصدراً
بغير جنود العجم والشوكة التي	تطاطى لها روس الأنام تجبراً
ولو كنت أقوى فضً شمل	لما كنت عن صهرى أذن متأخراً
فإن كان من ابنا نزارٍ بشاشة	وشمر برأقُ الهمام وعسكراً

وجاءت نزارٌ رجلها وخيولها
فإنى سأوفى من خيولى وفتنتي
لتطعم آلِ الفرس ضرباً وعسكرا
رجالاً يرون القتل مجداً ومفخرا
فשמري إلى الأعمام منك ابن مرة
ونادِ إلى أحلافهم متنهرا

قال ولما فرغ من شعره قال يا لكيز اذهب إلى قومك واطلبهم للنصرة فإنى أرجو
العطف منهم لك واعلم أنهم يأنفون لذلك ويغضبون منه لحق نفوسهم لا لحق
نفسك فليلى حرمةً من نسايتهم وفضيحتهم عليهم فإن عزموا على المسير لنصرتك
فإنى أمك بما أقدر عليه من خيلٍ ورجالٍ خفيةً فقال لكيز أنا ما أجهل ذلك ولست
ممن تأمره بالمسير إلى قومه في طلب المساعدة والمعونة منهم وإنما قصدت النجدة
منك أولاً بحيث ما كان منى وهجرى لقومى ورغبتنى فيك دونهم وقد ظننت أن
فيك الكفاية لنصرتى فأتيت إليك مستجيراً دون استعاطفى لقومى وانكسارى لهم
وإلا فهم نعم القوم يهبون الكريمة ولا يهابون العظيمة نيلهم مبدول وحسامهم
مسلول وعدوهم دمه مهطول وأسيرهم لا يفادى إلا بالنصول وإننى أرجو أنهم
يغفرون زلتى ويرحمونى ويجبرون كسرى وينصرونى وإذا سرت إليهم فلست
محتاجاً إليك. وإنما عملت الواجب على وعلى ثم خرج من عنده مغتاضاً وشد
بأمواله وتوجه إلى أهله وأطلاله. فنزل بالأراقم دون البراق وأنكر لديهم واعتذر
وقص عليهم ذلك الخبر وطلب منهم السماح والرض. وغض النظر عما مضى
فالتفت عليه كليب وقال ليس هذا وقت اعتذار إنما أضرمتها أنت وتلقى حرّها
غيرك فذهبت مثلاً *

قال وشاع خبر سبى ليلى فى قابيل ربيعة ومضر ومن جاوره من عرب البر إلا
قفر فأنفوا من ذلك وأخذتهم الغيرة والحمية وعطفت فى رؤوسهم النخوة الجاهلية
وأشفق البراق على ليلى واستعظم الأمر وأظهر على نفسه الجلد والصبر. وكتب ما
عنده عن زيد وعمرو *

قال وحضر عامر بن ذؤيب الأرقمى إلى البراق وأخبره بحال لكيز بن روحان
وسأله القيام فى بيت ربيعة لخلاص ليلى من بلاد فارس وخراسان. فقال البراق أنا

رجلٌ منكم إن طعنتم طعنت وإن كررتم كررت وإن فررتم عطفتم وإن رحلتم رحلت وإن أقمتكم أقمت فلما سمع عامر كلامه علم أنه قد أظهر خلاف ما أضرمر فأنشأ يقول:

قد اجتمع البراق فى حال حادثٍ	له بين أحناء الضلوع وجيبٌ
له عين إغماضٍ وعينٌ قريرةٌ	وصدرٌ على ما جاء منه رحيبٌ
وأقسم لا قامت ربيعة بعده	وذلك من فعل الهمام عجيبٌ

ثم خرج عامر من عنده وقد داخله أمرٌ مريب من ذلك وجاءت أمُّ الأغرّ إلى أخيها كليب وتكلمت عليه كلامًا كثيرًا فى شأن ليلى ولامتة وغيرته وأنشأت تقول:

أراك عن الأمر المشتت غافلًا	كأنك ناجٍ من خزيائه سالمٌ
وإن امرئًا عن مثله كان قاعدًا	فلست تراه فى العلى وهو قائمٌ
فسيروا لليلى لا شتمتم بعارها	لقد فضحت فى شان ليلى الأراقمُ

قال فسكتها كليبٌ وقال أقلى من اللوم فإن الذى بنا يكفينى وسوف ترين ما نصنع ثم نهض من ساعته مع إخوته وعمهما لكيز أبو ليلى وأولاده وقدموا على البراق فقال كليب يا أبا النصر جيناك لأمرٍ مهم قد شملنا عاره فى كل مكان وذهبت به الركبان ولامتنى أمُّ الأغرّ حتى عجزت عن جوابها وقد عنفتنى بخطابها فهلا تقوم فى ربيعة وتكشف عارها وتأخذ ثأرها وتستخلص ليلى من أسرها وإضرارها فإن أبوها قد ندم على ما فعل وجاء يعتذر إليك فاصفح له وسامحه من ذلك الزلل، لأن ربيعة ليس لها معينٌ سواك ولا رئيسٌ إلا إياك ثم قام أبو ليلى إلى البراق واعتذر وسأله العفو وغض النظر *

قال فلما سمع البراق كلامه قبل عذره والتفت على كليب ومن كان حاضرًا معه من رؤساء قومه وقال مرحبًا بكم يا بنى الأعمام فقد أجبتمكم إلى هذا المرام وأنا أقسم بالبيت والحرم والركن المعظم لأبذلن معكم غاية جهدى ولأضربن دونكم

حتى يكل ساعدى وزندى تكفوا ألسنتكم عن التشيع بالغارة. كأنه لم يكن عندكم علم فى شيء من هذه العبارة لأن هذا ملك عظيم الشأن كثير الجند والأعوان. وهو فى مداين حصينة مشيدة البنيان لا تفيد فيها الغارة والقتال ولا يفيدنا إلا المحاصرة وبذل الأموال فلو كان يسير إلينا فى الفضاء لكان أهون علينا من شرب الماء ولكن دونهُ خرط القتاد فى الليلة الطحناء فأرسلوا إلى إخواننا مضر الحمراء واستنصروهم لهذا الأمر المهم الذى لا يعيننا على مثله إلا هم فانطلق كليب من ساعتِهِ ووجه إلى مضر جماعة من أشراف وایل ورئيسهم عامر بن ذويب البطل الحلال. فقدموا على مضر فأكرمهم غاية الإكرام وقال عامر يا بنى الأعمال قد علمتم ما دهانا به الدهر من سبى كريمتكم ليلي عند الأعجام وقد جينا نستعطيكم الدماء التى لكم علينا وقد علمتم أن ربيعة ومضر ليس لأحدهما غنى عن الأخرى فلا عذر لكم إلا تجدونا على قتال كسرى فأجابهم نوفل بن عمرو القرشى بهذه الأبيات *

نال المصاب بنى عمى فاشجانا	وقد أضربنا والله ما كانا
لكن فعلكم بالأمس فرقنا	حتى كان لم نكن بالأمس جيرانا
فلا تلوموا بنى الأعمام غيركم	إذ كان منكم بدء الأمر طغيانا
قتلتم عك طغيانا ومظلمة	كأنكم لم تكونوا قط إخوانا
ولم نعق ولم نطلبكم بدم	بل اعتزلناكم عفوا غفرانا
وقد صبرنا وكان الصبر عادتنا	على الصديق ولو بالظلم بادانا

ثم قال إننى أخاف إذا استنصرت القبائل ورأت مضر غريبا من بنى ربيعة لأنا من وقوع الفتنة دون العجم فيأول الأمر إلى أعظم هذا عذرنا فأعرضوه على عقلايكم فانقلب وفد ربيعة حتى وصلوا إلى البراق وأخبروه بما قال نوفل وأنشدوه الشعر فقال تعست الجناية على الصديق فسارت مثلاً ثم إن البراق جمع قومه بنى وایل وأحلافهم وجعل يحرضهم للحرب وقال:

لم يبق ياويكم إلا تلاقيها ومشعر الحرب لاقيتها وآتيها

من بعد هذا فولوها مواليتها
فخر الحياة وإن طالت لياليها
حسن الثناء مقيمًا ذئوى فيها
فسوف يلقاكم ما كان لاقىها
حزن البلاد وطورًا فى صحاريها
وحى كهلان إن الجند عافىها
صعب المراقى بما تأبى مراقىها
فى ماجنى البعض إذ ما البعض راضىها

لا تطمعوا بعدها فى قومكم مضرٍ
فمن بقى منكم فى هذه فله
ومن يمات معذورًا وكان له
إن تتركوا وائلًا للحرب يا مضرٍ
يا أيها الراكب المجتاز ترقلُ فى
أبلغ بنى الفرس عنا حين تبلغهم
لابدٌ قومى إن ترقى وقد جهدت
أمّا إيادٌ فقد جاءت بها بدعًا

قال ثم إن البراق أغار بمن حضر من قومه ربيعة ومن معه من قبائل العرب
وصبح مدينة عرنة وهى فى حدود الملك شهرميه وكان فيها قائدٌ للملك فى سبعين
ألفًا من الفرس وأخلاق العرب وكهلان فهجم عليهم بخيل قليلة حتى خرجوا من
المدينة فانكسرت خيل البراق فطمعوا فيها وساقوا فى أثرها حتى أبعدوا فعطف
عليهم البراق بجموع العرب وقتل منهم وكانت الدائرة عليهم فأخذهم وغنم جميع
ما فى المدينة من الذهب والفضة والسلاح وأنواع التحف ورجع ظافرًا غانمًا وأنشأ
يقول:

جنودٌ وقفرت رعيته النفاقُ
وحصنٌ ودورٌ دونها ومغالق
ولما يعقه عند ذلك عائق
بنو مضر الحمر الكرام الشقائق
وإنى بهم يا قوم لا شك واثق
وقد بات دمعى وهو فى الخد دافق
وأسلمك الشيخ الجهول المنافق

أمنٌ دون ليلى عوقتنا العوايق
وعجمٌ وأعرابٌ وأرضٌ سحيقةٌ
وغربها عنى لكيزٌ بجهله
وقلّدتى ما لا أطيق إذا ونت
وإنى لأرجوهم ولست بائسٍ
للىلى استطالت ليلتى بعد بيننا
فكيف وقد أصبحت فى دار غربةٍ

اليلى وأنتِ القصد قد غالكِ النوى
رمى الله من يرمى الكعاب بريبة
فمن مبلغُ برد الأيادى وقومه
ستسعدنى بيض الصوارم والقنا
على مركبٍ صعب المراقى لأجلها
وتنهضنى للمضلات الحقائق
وفعل لئيم يا ابنة القوم سابق
ومن هو بالفحشاء وللكر ناطق
بأنى بشأرى لا محالة لاحق
وتحملنى القبُ العتاق السوابق

ولما رجع البراق من غزوته وفدت عليه رؤساء العرب وأكابر الناس يهنيئونه بالنصر والظفر ومدحته العرب بالأشعار فأعطى وكسا وأقرى ووفد عليه نوفل بن عمرو القرشى يهنيه وكان بينهما مودة وأقام عنده واعتذر إليه عن المسير معه بقباير مشر وأن اجتماعهم معهم يهيج الفتنة فقبل عذره ورأى كلامه صواباً وبعث البراق إلى أخواله طى يستنصرهم على العجم فأقبلوا إليه من كل فجٍ فترحب بهم وأكرمهم وخصص خاله نصيراً من تلك الغنائم بأسنى عطية وكانت ربيعة قد صارت أوسع العرب خيراً لكثرة ما حازوا من غنائم مدينة عرنة وكان قد بلغ كسرى شهرميه قدوم العرب إلى حدود بلاده فاستعظم الأمر وقال هذا هو الحساب الذى كنت حسبته وقد تم فجمع قواده وأرم بتحسين المدن والقلاع وأن يأخذوا الأهبة لقتال العرب فامتثلوا أمره واستعدوا من يومهم وأرسلوا الجنود إلى ساير المدن التى فى جوار العرب وحصنوها فلما جاء عسكره منهزماً من مدينة عرنة وأخبره بما كان من افتتاح المدينة وقتل الرجال ونهب الأموال ساءه ذلك وعزم على قتال العرب وخراب بلادها واستيصال أهلها وسبى الذرية *

قال ثم أن البراق بعد ذلك وجّه خاله نصيراً يراقب العجم وينظر ما هم عليه من الاستعداد فركب نصير فى جماعة من قومه متخفياً حتى ورد مدينة كرخا ودخلها فوجدها مزدحمة بالجيوش والعساكر *

قال وكان كسرى قد أرسل البهامية ألف مقاتل من أبطال العجم لأنها مفتاح بلاده وكان فيها من العرب جمعٌ غفير من أولاد إياد وأنهار وكهلان فاجتمع منهم بنصير بن عمرو فترحبوا به وأكرموه ولم يعلموا أنه صاحب البراق فأقام عندهم

أيامًا حتى عرف ما هم عليه ثم خرج من بينهم وجاء إلى البراق وأخبره بأمرهم فقال لابد من قصدهم ولو كان قومهم كقوم تبع ثم إن البراق عقد الرايات والألوية وسار حتى انتهوا إلى قرب المدينة وكان ذلك عند طلوع الفجر فأمر كليبًا وعامرًا أن يأخذوا بجنديهما ميمنة المدينة والجنيد ونصيرًا بجنديهما ميسرتها وأقام هو ومن معه من بنى أسد وحنيفة في الوسط وعليه لواء الرياسة والملك وقال لنويرة تقدم أنت وم معك إلى باب المدينة واقتلوا من تظفرون به فإذا اشتبك القتال بينكم انقلبوا إلينا هارين فإذا رأوكم على ذلك الحال طمعوا فيكم وأغاروا خلفكم فإذا صاروا في الفضاء فنحمل عليهم بجمعنا ونقطع ساقاتهم فأجاب نويرة إلى ذلك وقصد باب المدينة فوجد عسكر الملك يرصده فوضع فيهم السيوف والرماح فقال الصراخ في المدينة وضجة الناس فخرج الملك شهرميه ومن معه من جنود وقبائل فاقتتلوا قتلاً شديداً وانهزم نويرة فتبعه الملك بعساكر ككراديس النمل فقال له وزيره برد بن طريح أنت تجهل قتال العرب وهذه خديعة من البراق فلا تفرط بالخروج والزم باب المدينة فعند ذلك رجع الملك وأغار برد بالجنود خلف نويرة فلما صارت جنود الملك في الفضاء حملت كل قبيلة بما يليها وحمل في أوایل القوم كليب والبراق وقام الحرب على قدم وساق واختلفت الطعنات بالرماح الدقاق وطارت الجماجم بشفار السيوف الرقاق وامتلاأت الأرض بالأرعاد والأبراق وفاضت الدموع من الآماق وكان يوماً مهولاً لا يطاق وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل حتى ضاق الميدان وصحى السكران وثبتت الشجعان وولى الجبان وقدحت حوافر الخيل شرار النيران. وكان البراق يتشوف برد بن طريح وهو لا يعرفه من بين الفرسان وكان في كل حملة ينادى أين برد فارس الطعان وبرد يسمعه ولا يبرز إليه خوفاً منس فيه والسنان وما زالوا على مثل ذلك المرام حتى ولّى النهار وأقبل الظلام فافترقوا وقد انصرت جموع ربيعة على عساكر الأعجم واستظهروا في ذلك اليوم عليهم كما تستظهر البواشق على الحمام فانهزموا ودخل الملك المدينة بسوء حال وهو حزين على ما فقد له من الرجال والأبطال وباتت ربيعة تشب نيرانها في تلك البطاح وهم في غاية السرور والأفراج ولما جنّ الليل نهض البراق وزيد بن

ذويب متشحن بسيفيهما يلتمسان خبر ليلي فدخلوا المدينة وكان باهما لا يزال مفتوحاً ليلاً ونهاراً لأجل قبائل العرب المجاورين العجم فلم يريا من يلتمسان الخبر منه فقصد مضرب جبراحا برد بن طريح فلم يجدا فيه إلا أعجمياً على فراش من الديباج فأنزله زيد عن فراشه فصاح فقال زيد أسكت ولك الأمان وإلا ذبحتك فسكت واستخرجاه من موضعه وسارا به فسألاه إذا كان يعرف مكان ليلي قال نعم هي في قصر قد أعدّه لها الملك وسط المدينة وهي في كل عازة وكرامة فقالا تدلنا عليها ونخلى سبيلك فوافقهما على ذلك وكان من أعيان قواد الملك وكان البراق قد ارتاب من كلامه فقال نرجع الليل ونستشير نوفلاً وانقلبا راجعان إلى نوفل فأخبراه والأعجمي معها فقال لهما يكون ذلك في الليلة المقبلة وأما هذه فقد انقضت فدفعاً إليه الرجل فسلمه إلى من يحفظه إلى الصباح. ولما أصبحوا نهض البراق في جماعة من قومه ونزل بالقرب من المدينة وأحاط بأسوارها وكانوا كل ما ظفروا بأحد من العجم كان أو من العرب المجاورة أخذوا ما معه وقتلوه فأضر ذلك بقبائل العرب والعجم فخرجوا عليهم وقتلوه قتلًا شديدًا حتى خيم عليهم الظلام فافترقوا وقتلت منهم ربيعة ذلك اليوم قلة شنيعة وأسروا منهم جماعة ثم إن البراق نادى زيد بن ذويب الذي صحبه في الليل الماضية وأخذوا العجمي المذكور وطلب منه أن يدلّه على مكان ليلي ويخلى سبيله وانتدب البراق رجالاً من فرسان قومه خوفاً من حدوث أمر لم يكن على بال. منهم كليب بن ربيعة ونويرة وعقيل وأخون غرسان بن روحان وساروا والعجمي معهم وكان باب المدينة مفتوحاً منه ما يسمع دخول الرجل فقط دون الخيل والإبل فسار بهم العجمي حتى وصلوا إلى القصر الذي فيه ليلي وكان بواب القصر أعجمياً فناجاه الأسير بأن فهؤلاء من العرب قد أسروني ووعدوني إن أوصلتهم إلى مكان ليلي يخلون سبيلي وقد ضمنت لهم ذلك فهل لك أن تأذن لي ترحمني ولم يزال يتطلف به حتى أذن لهم فدخلوا القصر واستخرجوا ليلي وأردفها عقيل خلفه وانصرفوا وخلوا سبيل العجمي فصاح البواب عند رجوعهم فجاءت غلمان الملك في صدورهم الحجب والسيوف المزخرفة ولزموا عليهم الشوارع وضيقوا عليهم المسالك ورشقوهم بالنبال

والحجارة ونازلوهم بالسيوف فاستنقذوا منهم ليلي قوةً واقتداراً وأفلت البرّاق ومن معه بعد جهدٍ جهيد حتى انتهوا إلى نوفل فأخبروه بما كان فقال هلاًّ قتلتم الحاجب والأسير بعد أن ظفرتم بليلى فقالوا منعنا من ذلك العهد الذى سبق منا قال قد كان ذلك فسلا متكم غنيمة وكان البرّاق قد اعترأه غمٌ جسيم لفقد ليلي فبات ليلته على همٍ شديد وشاق صدره فقال:

ألم ترَ من دون ليلي لنا	ضرباً طويلاً وزحفاً ثقيلاً
وحذف الحجار ورمى النبال	وأساد حرب تسدُّ السبيل
وهو المضيق وسوء الطريق	وبأباً لحاجبه مستطيلاً
ولو كنت أدركت ليلي اذن	ركبت إليها بعزمي فى الخيول
ولكنها تحت روع الهلاك	وذلك همُّ أراه طولاً

فلما أصبح اصطف القوم واقتتلوا إلى المساء فانكسرت العجم وكثر فيهم القتل فدخلوا المدينة وغلقوا أبوابها وتركوا الأثقال والفرش والمضارب والبغال خارج المدينة فأخذتها ربيعة عن آخرها ثم إن الملك شهرميه تحصّن فى المدينة ولم تزل ربيعة محاصرةً للبلد من جميع أقطارها أياماً وليالى فلم يظهر منهم أحدٌ فاجتمعت رؤساء ربيعة إلى البرّاق وقالوا يا أبنا النصر أتعبتنا الإقامة ونص عددنا القتل وضعفت خيلنا فما ترى فى أمرنا فقال نرجع إلى ديارنا ونستعطف قومنا مضر ونزداد قوةً ونعود فانقلبوا راجعين بجميع الغنائم التى أخذوها وأنشأ البرّاق يقول:

عفوتُ بقومى البحرانزف ماءؤه	وهل ينزفُ البحر يا قوم نازفُ
ويوم التقينا ظلّ يوم عمطمطٍ	وفيه غبارٌ ثائرٌ وعواصف
وضربٌ يقدم الهام بالبيض موجعٌ	وفيه الجياد السابحات زواحف
إذا قيل قد ولّت هزيمًا فإنها	بقدر لحاظ الطرف منك عواطف
وظلّ لها يومٌ يجمع هبوةً	بها يبتنى سقفٌ من الأفق واقف

وهالت ذوى الألباب تلك المواقف
فصيحاح حدٌ ثائراتٌ خفائف
وينهضها الشمُّ الكرام الغطارف

ودارت رحي الحرب المشيبة للفتى
بها نغم الأسياف تنطق بالطلّى
فأبت إلى ما يستشير بنى أبي

قال وإن ليلي لما علمت برجوع فومها إلى ديارهم تذكرت غربتها فحزنت حزناً
عظيماً وبكت بكاءً شديداً ودعت رجلاً من بنى أنهار وبذلت له العطية وأرسلته إلى
قومها سرّاً وأمرته أن يستنجدهم وينشدهم قصيدتها المقصورة فمضى الأنهارى حتى
اجتمع بالقوم وأخبرهم بحزن ليلي وما هى فيه من الغم والقلق وأنشدهم قصيدتها
التي تقول فيها:

ليت للبراق عيناً فترى ما أقاسى من بلاءٍ وعنا

فلما فرغ منها وسمعتها آل ربيعة خنقتهم العبرة فقال كليب يا قوم ما هذا أوان
البكاء قوموا بنا إلى البراق فامثلوا وساروا حتى قدموا عليه ومعهم الرسول فأنشدهُ
الشعر فأنف البراق ولحقته حمية الجاهلية وقال توجّه يا كليب أنت وإخوتك وابن
عمك لكيز واقصدوا أحياء طى ومضر واستعطفوهم واستوهبوهم الدماء
واستنجدوهم وأنشدوهم شعر ليلي فمضوا وكان أول من وفدوا عليه زيد بن رباح
فأخبروه وأنشدوه شعرها فأنف من ذلك أنفاً عظيماً وأنشأ يقول:

أبلغ ربيعة أ،ى ثائرٌ معَهُم
فإن ربيعة ردتْ فهى عالمةٌ
وعندهم من جياذ الخيل أجودها
والمقدمون بهم فى كل حادثٍ
فشمروا يا بنى قيسٍ بأجمعكم
أنهى بنى العم لا تخزوا بنى أسدٍ
فى آل ضبّة داعى القوم داعينا
بأنّ وائل فى هذا موالينا
والزغف والخطُ مع بيض بلالينا
والواردون المنايا لا يباللونا
إلى الطعان فما زلتم مطاعينا
ولا تكفوا ولا تبقوا أعاديننا

واستعد زيدٌ للمسير وقال لهم أقدموا على إخوتكم مضر وأخبروهم
واستعطفوهم وأنشدهم الأنهارى شعر ليلي فلما وصل إلى قوها:

لبنى الأعجام تشمير الوفا
وأشهروا البيض وسيروا فى الضحى

قل لعدنان فديتم شُمِروا
واعتقدوا الرايات وإيتونى بها

استعظموا الأمر وأنفوا من ذلك أنفًا شديدًا وسعى بعضهم إلى بعض فقام النفاذ
بن عوف العامرى وأنشد يقول:

قطعتُم وائلًا قومى باعلانِ
فسوف يبدلهم شأنٌ من الشأنِ
شم العرانيين مما قد جنى الجاني
إياد فى فسطلٍ مستعزمٍ بانِ
ظنّت بنو الفرس ظنًا ليس بالداني
معاقلى وذوى مجدى وفرساني

كم القطيعةُ يا أبناء غيلانِ
لا بد من غارةٍ للعجم فاجتهدوا
لا صبر لى بعد هذا عن بنى أسدٍ
يا أيها الناس سيروا بالجياذ إلى
يا أيها القوم لا أمٌّ لأمّكم
إنّا ووائلٌ عظمٌ لا انفصام له

ثم قال زيد بن دُرَيْد وأنشأ يقول:

أنتم آل نزارٍ بيت مفتخرٍ
بالجرذ والمرد والهدية البتر
وسوف يلقونه عسرًا من اليسر
وحى أنمار والماذى والسمر
إذا نهضتم يقفوكم على الأثر

يا آل عمرو بنى العلياء من مضرٍ
يا آل مدركةٍ سيروا بأجمعكم
ظنّت بنو الفرس ظنًا وهو
سيروا لى إيادٍ سير ذى ظعنٍ
وقد علمتم بأن النصر عادتكم

قال وهاجت رؤساء مضر عند ذلك واضطربوا وأخذتهم حمية الجاهلية وعموا
على نصرة إخوتهم ربيعة وتركوا لهم كل ما كان بينهم من دم أو ثأر ثم أقبلوا على
كليب ومن معه من رؤساء ربيعة وقالوا مرحبًا بكم يا سادات ربيعة لكم النصرة
والنجدة على عدوكم فانصرفوا من عندهم مسرورين وتواعدوا أن يحضروا إليهم
مع البراق إلى الحرّم فيجتمعون هناك للمشورة واجتمعت قبائل مضر عند قريش
وأтаهم البراق فى قومهِ ورؤساء ربيعة كافةً والتقوا بإخوانهم من مضر وتصافحوا

وتسالموا وذهب ما كان في قلوبهم من الأحقاد القديمة ووقتوا للمسير وقتاً معلوماً
ثم إنهم انصرفوا لإصلاح شأنهم وراح البراق بمن معه فرحاً مسروراً وأنشأ يقول:

لقد صدق المخبر والمشيرُ	وطاب لي التجهز والمسيرُ
ولى قلبٌ إلى الأعجام فيه	جنود الشوق تخفق أو تطيرُ
بنى إسحقَ ويحكمُ تهياً	ومن حوليكم أبداً وسيروا
إليك ربيعةً بالخيّل معها	بنو أسيدٍ وغسان الصقورُ

قال ولما بلغ الملك شهرميه اتفاق ربيعة ومضر على المسير على بلاده جزع لذلك
واضطرب اضطراباً شديداً وكتب من وقته إلى جميع عماله وقواده ومن يعتمد عليهم
وأمرهم بأخذ الأهبة والاستعداد وكانت القبائل من العرب الذين في جوار العجم
لما بلغهم قدوم ربيعة ومضر احتسبوا وخافوا ورفعوا حريمهم وأموالهم من حدود
العرب إلى حدود العجم وانضموا إليها انضماماً صحيحاً.

قال صاحب الحديث وتجهزت بعد ذلك ربيعة ومضر. في جمع غفير من العسكر.
وساروا طالبين مدينة كرخا وتلك المعالم لأجل استخلاص ليلي من سبى الأعاجم
وسار معهم نصير خال البراق الأسد الكاسر. ومن استطاع المسير من سادات
العشاير والجميع بالدروع والمغافر والسيوف البواتر وكان ثعلبة بن الأعرج لما سمع
برحيل الفرسان نهض في من يجيب دعوته من قومه كهلان والتقاها في بعض
الطريق وهو يقول:

أتينا وسرنا بالقواضب والقنا	بنى مضر الحمرا وأبناء وائل
نيا عفر دلاج الثغور عرمر	جحافل جيش أردفت بجحافل
بها ليل من كهلان قومي وغيرها	قسطالها موصولةً بقساطل
نريد بها كرخا ومن حلّ حولها	يأدّ وأنماراً أهالي الدلائل

ولم يزلوا سائرين مدة أيام. وهم يقطعون الفياض والآكام إلى أن ظهرت لهم
المدينة عند غروب الشمس. فصادفوا فيها جنوداً لا تحصى من العرب والفرس

فنزّلوا في تلك الأرض ونصبوا خيامهم وأركزوا أعلامهم ولما كان الصباح ركبوا ظهور الخيل وتأهبوا للحرب والكفاح واعتقلوا بالسيوف والرماح فالتقتهم العجم والعرب في تلك البطاح وقد ارتجت الأرض من كثرة الضجيج والصياح ولقيت كل قبيلة قبيلةً أخرى فواقعت كهلان أخوالها طى لقي بنو شيان إيادًا وتغلب أنهارًا وتميم ومدركة جيوش كسرى. فبلى من يومٍ ما كان أكثر غبارُهُ وأشدَّ هولُهُ وأحرَّ ناره ولم يزلوا في العراك والصدام إلى أن ولى النهار وأقبل الظلام وكانت عساكر كرخا قد كلَّت ومَلَّت وكثر فيها القتل واضمحلت فتأخرت وأذنت بالفرار ودخلت المدينة تحت ستور الاعتكار وكسبت العرب منهم في ذلك اليوم من الغنائم ما لم يعرف له ثمن ولا مقدار ولما كان في اليوم الثاني خرجت عساكر العجم بكل فارس كرار مطالبة قتال العرب وفي قلبها منهم لهيب النار. فلما التقت العين على العين اشتعلت نيران الحرب بين الفريقين وقاتلت العجم في ذلك اليوم وصبرت وما تركت شيئًا من جهدها ولا قصرت وما زالت نيران الحرب ملتهبة إلى أن أمسى المساء فافترقوا عن غير غلبة. ولما كان شيءٌ من الليل استدعى البراق بجماعة من قومه فلما حضروا قال لهم اعلموا يا بنى العم أننى ما دعوتكم إلّا لأمر مهم. فقالوا مر با شيت أيها البطل الصنديد فإننا نسمع ما تأمر ونفعل ما تريد. وقد علمت يا أبا النصر أننا لم نفارق الأهل والديار إلّا لما يكشف عنا العار قال قد علمتم أن المطلوب من هذه الغزوة التى ذهبت فيها الفرسان والتحق سوءًا بالعجم والعربان هو ليلى العفيفة بنت لكيز بن روحان وعلمتم أنها تحت روع الهلاك والوبال ولا تنال إلّا بالتطفل والاحتيال فهل فيكم نجدةٌ للقيام معى فى طلبها لعلنا نستنقذها ونظفر بها فقالوا نحن طوع يدك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم على ذلك وسار بهم فى تلك الليلة تحت جنح الظلام وأدخلهم إلى المدينة وم يتخللون عساكر الأعجام وما زالوا يتجسسون كل ذلك الليل إلى شروق الشمس ولم ينكرهم أحدٌ لاختلاط العرب بالفرس. وبينما هم كذلك إذ وقفوا على مضرب كبير حوله مضارب وقباب فيها جندٌ كثير فأنكر الجند أمرهم وهجموا عليهم كالسلاهب وأحاطوا بهم من جميع الجهات والجوانب. هذا وقد ارتفع الصياح وتكاثرت عليهم العساكر فوضع

البراق وأصحابه فيهم السيوف والخناجر ولم يزالوا يقتلون كل من يهجم عليهم حتى خرجوا من باب المدينة وقد أمنوا من المخاطر *

قال ولما كان الصباح خرجت عليهم عساكر الملك من المدينة وماجت في تلك البطاح كما تموج في البحر السفينة وصدمت أبطال العرب من ساير الجهات. وانتشب القتال بين الفريقين وعلت الأصوات وأشرعت الرماح الردينيات. وعملت السيوف المشرفيات. وتقابلت الصفوف وخفقت الرايات. وكان يومًا لا يقاس بالأيام. ولم يسبق مثله في سالف الأعوام لأن الدما كانت تتفجره والجهام تتكسره والأرض ترتج من الضجيج والعجم تهدر وتهيج فوق الخوف في قلوب العرب وهمت بالهزيمة والهرب خوفًا من وقوع العطف وقد احتارت في أمورها وظهر عجزها وتقصيرها. ولما رأى البراق كثرة عدد الأعجام وجراتهم على الإقدام ونظر قومه بين إقدام وإحجام خاف عليهم من الانهزام فأخذ يحرضهم على القتال ويقول هذا يوم قاسمة الظهور هذا يوم السعى المشكور ولا ينال الثنا والحمد إلا الصابر الجسور فالتقوا بصدوركم هذه الطلائع والصفوف واعلموا أن العز في أطراف الأسنة وشفار السيوف فإن تبتم ظفرتهم ونلتم الشرف والفخر وإن نكلتم لم تقم لكم قائمة مدى الدهر فاهجموا وكروا ولا تدبروا وتفروا فلما سمعوا كلامه أخذت بهم الحمية ولعبت في رؤسهم النخوة العربية فعطفوا وحملوا حملة رجل واحد وصابروا على الموت والشدايد والتحم العرب والطعن بالرماح وكثر القتل والجراح وثبت الفارس الحجاج وولى الجبان وراح. وما زالوا في معركة الكفاح إلى أن حجز الليل بينهم فانفصلوا وبات كل من الفريقين يشب ناره إلى الصباح ولما كان النهار خرجت عليهم جنود العجم كالجراد المنتشرة واقتتلوا قتالًا شديدًا وظهرت راية العجم على العرب وكثرت النكاية في ربيعة ومضر فحافظت على راياتها وصبرت على ما لم يصبر عليه أحد من البشر وما زالوا في قتال وصدام إلى أن ولى النهار وأقبل الظلام فعند ذلك دخلت العجم المدينة وكانت كما ذكر بالأهبة حصينة فأغلقت الأبواب ورجعت العرب إلى خيامها قال وما زالوا على هذه الحال أيامًا متصلة يقتلون من الصباح إلى المساء عند باب المدينة وكلما رأت الأعاجم

الغلبة أغلقت الأبواب ورشقتهم من شوارف السور بالنبال والحراب وكان هذا دأبهم برهةً من الزمان فاضرت بقايل العرب هذه الإقامة ووقع في عددهم النقصان وضعفت خيلهم من كثرة الكد والجريان وكانت العجم قد ضابقتهم لشد الضيق حتى كاد ينفذ ما عندهم من الخبز والدقيق والعجم لا تزدد إلا قوةً ومددًا ولا ينقص القتل منها عددًا فضاق منهم الأنفاس وعدموا الرشد والحواس وأيسوا من أنفسهم حد الإياس وندموا على حضورهم إلى تلك الآفاق. فهنض ثعلبة بن الأعرج ونصير خال البراق وسارا من ليلتهما إلى ديارهما بمن معهما من الأهل والرفاق وبقيت ربيعة ومضر ومن معهم من العسكر ولما كان الصباح خرجت عليهم جنود الملك فالتقت الأقران بالأقران وامتدت الأعناق للضراب والطعان واكفهرت الوجود من الخوف واغبرت واكتست الأجسام بريش النبال فاقشعرت وثار الغبار وقام القتام وخاض بحار الدماكل خاصٍ وعام واستمر الحال على مثل ذلك نحو عشرة أيام. وكانت قد انكسرت العرب وقتلت العجم منهم قتلة هائلة وكان من جملة المقتولين غرسان بن روحان أخا البراق فعظم الأمر على العرب، وخافوا على نفوسهم من الهلاك والعطب *

قال صاحب الحديث ثم إن رؤساء ربيعة ومضر اجتمعوا إلى البراق للمشورة وقالوا يا أبا النصر إن هذه الإقامة قد أضرت بنا وأضعفت خيلنا وأذهبت رجالنا بالقتل والجراح والأعدام لا يزدادون إلا قوةً وقد رأيت ما حل بنا من الخسارة بعد أن كدنا ننهمز وتفرقت القبائل عنا ولم يبق إلا نحن أبناء الأخوين وإننا نخشى من السبى والهلاك فنكون لا أدركنا الحسنى ولا سلمنا من الهزيمة والقتل هلاً تدرکنا بالرحيل إلى أهالينا ونستريح ونريخ خيلنا ونستعد للرجوع مرةً أخرى فبكى البراق وقال هيهات ضاقت صدوركم وخفتم القتل فشانكم وأنفسكم وأما أنا لست براجع دون فكاك ليلي ثم سألهم المبيت تلك الليلة فلم يروا ذلك رأيًا وغلبوا الظن أن أصبحوا وقالوا تأخذهم العجم فنادوا بالرحيل ورحلت ربيعة ومضر وغنايمها بين يديها ومنهم لم يعلم بتخلف البراق وكانوا يسيرون رُفقاءً وكل مكان يبيتون الليلة والليلتين ويزعمون أن البراق لا يصبر على الإقامة وإنه يلحق بهم في الطريق

وكان البرّاق قد بات ليلته إلى الصباح فأخذ أخاه غرسان واحتمله على جواده
 وخرج به إلى شرقى المدينة وإذا هو بنهر جارٍ وعنده حائطٌ جامعٌ للأشجار ودارٌ
 مشيدةٌ لرجلٍ من إياد يقال له صريم ولإخوته وعبيدهم فدنا البرّاق من النهر وأنزل
 أخاه وغسله من الدم والتراب وفرش له فراشاً من ديباج كان معه وألقاه عليه
 وجعل فوقه ثوب خزٌ ونزع البرّاق درعه ولباسه وجعل يغتسل ويستنقى من صدا
 الدرع ثم لبس أثوابه وانعكف على أخيه وقبله بين عينيه وأنشأ يقول:

مزجّين للأجمال من رملانٍ
 إياباً وصنوى فى المعارك فان
 سأمكث لاثنى بدای عنان
 مع ابن عبادٍ والفتى ابن إبان
 مضمرةٌ قد ضمّرت لرهان
 ليغضبه ما كان من غرسان
 أولئك فرسانٌ وأهل طعان
 بعلمٍ صحيحٍ ليس يجهل شاني
 وإنى إلى الأوطان لست بدان
 وغرسان مقتولٌ بدار هوان
 ملبٌ لما أدعوا بكل لسان
 بكل إغاراتى بحدّ سنان
 وأنكر ما أسلفت يوم دعاني
 بنو بدر مكتوفاً وكل يماني
 وقومت عسالى وصدر حصاني
 وغيّته فيه بغير توان

تولت رجالي بالغنایم والغنى
 ونادوا نداءً بالرحل فلم أطق
 وودلى كليبٌ بعد أيقن أنني
 كذاك أبوزيد مضى بغنيمه
 وراح لكيز لشج بجمى مرية
 إلا وجنيدٌ قد تولّى ولم يكن
 كذاك ظليلٌ والرسيل وسالمٌ
 وأذن مناحين راح مهلهلٌ
 بأنى مع غرسانه مختلفٌ
 أأوبُ إلى أمى سليماً مكرماً
 أأترك من لا يترك الدهر طاعتي
 أخى ومعينى فى المضيق وصاحبي
 وأكثر ما بى أن تولي نويره
 دعانى وقد ألقى المهلهل بالقنا
 فلما دعانى يا أبا النصر لم أخم
 طعنت بأولى الرمح جبهة مالك

وجندلت عماراً بضربة صارم
فمن مبلغ عنى كلياً رسالة
ومزقت شمل الجند بالحولان
ألم يكُ فى ما يشتهى بمعان

قال ولما فرغ البراق من شعره بكى على أخيه بكاءً شديداً ثم نصب ركبته ووضع جبهته عليها ليستريح من شدة النعاس وكان بالقرب منه غلامٌ لرجلٍ من أشراف إياد يقال له صريم صاحب القصر المذكور فرأى البراق وهو لا يراه وسمع شعره فأحزنه ولما استلقى البراق على قفاه دنا الغلام من غرسان وكشف وجهه فنظر إلى صورة حسنة فتأسف عليه فلم يملك الغلام غبرته دون أ، بكى فرفع البراق رأسه وقال من أنت ومن يكون مولاك يا غلام قال صريم الإيادى وهو صاحب هذه المنازل والبلاد فعند ذلك تذكر البراق ما هو فيه من الكربة والمحن. وما جرى عليه من الفراق والغربة عن الوطن. ففاضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤادٍ موجوع:

بكيت لغرسانٍ وحقٌ لناظري
بكيت على وارى الزناد فتى الوغى الـ
إذا ما علا نهذاً وعرض ذابلاً
فأصبح مغتالاً بأرضٍ قبيحةٍ
وقد أصبح البراق فى دار غربةٍ
حليف نوى طاوى حشى سافحاً دماً
فمن مبلغ عنى كريمة أمه
وقل لكليبٍ لا أقام بداره
ولا أومضت نيران آل نويرة
ألا ولكيز غير العار وجهه
فليت لليلى فنظرة فتعينني
بكاء قتيل الفرس إن كان نائياً
سريع إلى الهيجاء إن كان عادياً
وقحم بكرىاً وهزئ يمانياً
عليها فتى كالسيف فات المجارياً
وفارق أخواناً له ومواليها
يرجع عبراتٍ يهجن البواكيا
لتندب غرساناً وبراق ثانياً
ولا كان محمود الأفاعيل ماضياً
ولا كان يوماً فى لوا القوم لاوياً
كما غيب الحسنى وأصبح خالها
بها حججاً سبعاً نعم أو ثمانياً

ولو علمت ليلى وكانت خبيرةً
لجاءت تبارى العاصفات الذواريا
أما احترت ليلى الغداة بأني
أزيد على غرسان همًّا كما بيا
لقد قطع الوصل الذى كان بيننا
لكيزُّ بغاراتِ تسبُّبِ النواصيا

فلما سمع الغلام كلام البراق انقلب إلى مولاه ليخبره بحال البراق ويستعينه على جهاز أخيه ودفنه فلما دخل عليه أخبره به فقال صريم صفه لى قال هو سيد بنى وائل فعلم صريم أنه البراق وطمع فى قتله نظرًا لما بينهم من الأدمية فأحضر إخوته وعبيده وأخبرهم بما فى نفسه فوافقوه على ذلك وشدوا جياذ خيلهم فلما رأى الغلام ذلك أسرع إلى البراق فأنذره فقام البراق ولبسن لأمة حربه وركب ظهر جواده واستعد لقتاله *

قال وبينما البراق ينتظر صريمًا ومن معه إذ قدم عليه فى إخوته وهم سبعة وعبيده بالسلام على الخيل فلما رآهم البراق قوّم سنان رحمه بين أذنى فرسه وتقدّم نحو صريم وصمّم عليه بالطعنة فخاف صريم وقد أيقن بالموت فناداه ترفق بى أيها الفارس الأجد. والبطل الأوحد. ثم إنه نزل عن ظهر حسانه وحلّ حمائل سيفه ودفعه إلى بعض غلمانه وأقبل يسعى على قدميه حتى دنا من البراق فاعتذر إليه وقال قد ضمك المقدور بتشريفك إلى هذا البيت فأهلاً وسهلاً بك فأخبرنى من أنت ومن أين أتيت فلما سمع البراق منه ذلك المقال. أنشد يقول:

يخوفنى صريم وأن حولي
بنى أسدٍ بأسياقٍ رقاق
وآل حنيفة وبنى لهيم
وتغلب بالثقفة الدقاق
وإن كليب ويحك عن يميني
نعم ونويرة أسد التلاق
لقد عجب الصريم من انفرادي
فشدّ الخيل منه لكى يلاقي
فلو كان الصريم أشدّ عزمًا
لظلّ لدى مشدود الوثاق
أما يُدنى القضا منى لبرد
فأطعنه بمجتمّع التراقى
واجعل فى منازلهِ صياحًا
وفى نسوانهِ أمض الطلاق

طلاق الموت يا لك من طلاقٍ كال لا يعقّب بالتلافي

فقال صريم إننى ما جيت إلّا طامعًا فى قتلك فلما نظرتك ذهب ذلك الطمع
وولّى. وهل فى قومى إياد وغيرها نظيرٌ لك كلًّا. وها أنا قد أسلمت أمورى إليك
وجعلت اتكالى من بعد الله عليك فامنن على بالسلامة وأعطنى الأمان وأكون عونًا
لك على نوائب الزمان فلما سمع البرّاق كلامه أنشد يقول:

عونى عليه فتى فى أرض شيانٍ	فما أعدّ رجالًا مثل نسوانٍ
كم باكيات لليلى فى بنى أسدٍ	ونادباتٍ بحسراتٍ لغرسان
لهفى عليه ثوى فى موطنٍ خشنٍ	بين الجياد بأسيافٍ ومرّانٍ
والخيل تقرع عرضًا فى أعنتها	والأرض تقذف سيلًا من دمّ قان
فذاك مشرع أباءى الأولى سلفوا	بين المعارك من شيبٍ وشبانٍ
لا نَشْرِبُ إلى موت الفراش ولا	نرضى المصارع من أهلٍ وجيران
ارجع صريم كما أقبلتنى عجلًا	فيس شأنك يا قرشى من شاني
إنّا لبكر طى حيثما اختلطت	منا المناسب من طى وعدنان
أو لطى إذا حققتها وإنّا	حقًا أبو النصر برّاق بن روحان
ووائلٌ نسبى لا أبتغى بدلًا	منهم ولا فى سواهم معشرٌ ثان
ولت فى الفرس محتلٌ يساحتها	شبه اللصيق على زورٍ وبهتان
جرت جريرة برد ليت تظفرنى	به الليالى ولو من بعد أحيان
الكاسب العارى نوم ذوى حسبٍ	ومنزلٌ أهله فى المنزل الثانى

فلما سمع صريم شعر البرّاق أخذ يعتذر إليه وقال له طب نفسًا وقرّ نفسًا ولك
الأمان على كتمان الأمر فلا بد لى أن أبذل معك غاية المجهود فى نوال مرادك ثم إنه
أعطاه عهدًا وميثاقًا على ذلك فاطمأنت نفس البرّاق وكانت العرب إذا حلفت لا
تنكث فعند ذلك نزل البرّاق عن جواده وصافحه ووضع كفه بكفه وعزاه صريم

بأخيه وأمر عبده باحتفار قبر له فسارعوا إلى ذلك وانقلب إلى داره فأتى بأكفانٍ من أفرخ ما عنده من اللباس وكفنه ودفنه وبكوا عليه ثم ركب صريم بالبراق إلى داره وأنزله في أعلاها وفرش له فرشاً من الديباج وترحب به وأكرمه غاية الإكرام وأمر بإحضار الأطعمة والفواكه وجلس يأكل مع البراق ووعدته بكل خير *

قال ابن نافع هذا ما كان من أمر البراق وأما ما كان من قبائل ربيعة فإنهم لما قدموا على أهلهم بغنائيمهم وليس البراق معهم سألتهم النساء عنه فلم يأتوا عنه بخيرٍ وأخبروا بقتل غرسان وجميع القتلى من ربيعة ومضر فأعولت النساء من كل مكان وما فحرت منهن امرأةً بسلامة زوجها ولا ولدها وأما نساء بني أسدٍ فضربن الستور دون رجالنَّ وسودنَّ خدودهنَّ وشققنَّ جيوبهنَّ وقطعنَّ شعورهنَّ وأعولنَّ بالبكاء ونسبن كل قتيلٍ وتكلمت أم الأغرَّ على إختوها كلاماً شنيعاً وأنشأت تقول:

إلا فأبكى كريمة لا تملي	فلى بعويلكم أبداً عويلُ
فلا سلمت عشيرتنا وعادت	إذا غرب ابن روحان الأصيل
إذا رحتم وخلفتم هبلتم	أبا نصرٍ فلا رح القليلُ
فَرحتم بالغنائم حين رُحتم	وبان تعستم الغنم الجليلُ
تركتم ذا الحفاظ وذا السرايا	وراءكم أضلُّكم الدليلُ
فقل لنويرة وكليب مهلاً	أقيما إن خزيكما طويلُ

وقالت أم الأغرَّ أيضاً:

يبكين فرداً بنات الحى من أسدٍ	قد كنَّ يُحمن منه دايم الأبدِ
دعن التجمل وارفعن الحجاب ضي	على أبى النصر لا تبكى على أحدٍ

وأما البراق فإنه أطل المكث عند صريم وهو في الإعزاز والإكرام لم يدر ماذا يجري عليه وإلى ماذا يصير أمره إليه وكان لصريم زوجة من أشرف نساء العرب يقال لها الرقشاء فاتفق أنها دخلت على البراق ذات ليلة فسمعتة ينشد ويقول:

فمن لى مبلغاً لىلى سلاماً
ويعلمها بما لا قىت جهداً
وانى لا أنام ولا أهى
كل ناصح ضب عمى
من التعزىب والأسف الشىء
وكىف ىنام ذو نوم طرىء

فأشفقت علىه ورثت لحاله ثم إنها حىته بالسلام وجلست إلى جانبى وأخذت تتلطف بخاطره وتسلىه بالكلام ثم قالت له كن براحة بال من هذا القىبل فىنى مما بذل غاية جهدى إلى أن أقف لك على أخبار لىلى قال وكىف ىمكنك ذلك قالت إن لى معرفة بامراة برد بن طرىح وهى التى توصلنى إليها فقال إن كنت فاعلة ذلك فىكون لك على الفضل والمعروف وإن وصلت إليها أقربها سلامى وأخبرىها بمكنانى وقولى لها كىف ىحصل وقوعك فى يده فلعلها تخبرك برأى حسن ىكون فىه الفرج *

قال ولما كان الصباح مضت الرقشاء ودخلت على امراة برد فسألتهى عن لىلى فقالت يا أختاه وما ترىءىن منها قالت أرىء زىارتها قالت إنها فى أقصى دار الملك وقد أقام لخدمتهى جارتىن وجعل على الباب حاجباً لا ىءع أسداً ىصل إليها إلاً بازها وأنى إذا أردت زىارتها أو مشاورتهى فى شىء لا تكلمنى إلا من وراء الحجاب ولقد سألتها يوماً التءدم إلى دارنا فاعتذرت وامتنعت فإن أردت زىارتها من خلف الستر أنفذت معك من ىوصلك إليها قالت نعم فوجهت معها جارية فوقفت على الحاجب فنأى بجارية لىلى وقال استأذنى مولاتك لهذه الامراة قالت الجارية من تكونىن قالت من عشىرتها فأخبرت تلك الجارية لىلى فقالت قءىها وموضع النساء خلف الستر فتءدمت بها وحىتها بالسلام فسألتهى عن حالها ومن تكون من نساء العرب ولم ىكن من جوارىها من تعرف العربىة فأنشءت الرقشاء:

لك العزاء بغرسان وذا خبرى
قد روى الجنء عنه وهو منعكف
لغربوة وهموم لا تفارقه
وعنءنا سىء الحىىن من مضرى
علىه ىبكى لءى الظلماء والسحرى
سحّ الجموع من الأجفان كالطر

لا يستفيق من الأحزان سيدتي ولا يسير إلى بدو ولا حضر

قال قلما سمعتها ليلي تزلزلت من مكانها وأيقنت بصدق الخبر وفرحت بالبراق واغتممت لغربته وفرقة غرسان وأرادت تحقيق خبر البراق فقالت للمرأة صفيه لى أن كنت تعرفينه * قالت فيه وقار الكهل على صغر سنه وحلم الشيخ وأما صفة حسنه فإنه خفيف الجسم مستوى القامة عريض المنكين غليظ الساعدين أخضر اللون صافيه مستدير الوجه قد تلاًلاً عارضاه على أول لحيته أدعج العينين جعد الشعر فعرفت ليلي صفته وقالت بماذا أرسلك وقد علم أنه لا سبيل إلى الوصول إلى قالت إنه متوقع خلاصك وقد جيت لأتوقف على حقيقة خبرك وكيف يكون التدبير في ذلك قالت اقريه سلامى وقولى له يأتى معك فى ذى النساء لأنظره واسأله عن حاله وأعزيه بأخيه والرأى يكون بعد ذلك ثم أمرت لها بطعام فأكلت وشربت وتحديث عندها ولما أرادت الانصراف أنشدتها قصيدة وأمرتها أن تشد البراق إياها وهى قولها:

قد كان بى ما كفى من حزن غرسان	والآن قد زاد فى همى وأحزاني
ما حال برّاق من بعدى ومعشرنا	ووالدى وأعمامى وإخواني
قد حال دونى يا برّاق مجتهداً	من النوايب جهداً ليس بالقاني
كيف الدخول وكيف الوصل	هيهات ما خلت هذا وقت إمكان
لما ذكرت غريباً زاد بى كمدي	حتى هممت من البلوى بإعلان
تربّع الشوق فى قلبى وذبت كما	ذاب الرصاص إذا أُصلى بنيران
فلو ترانى وأشواقى تقلّبنى	عجبت برّاق من صبرى وكتماني
لأدرّ درّ كليب يوم راح ولا	أبى لكيز ولا خلى وفرساني
عن ابن روحان راحت وائل كئباً	عن حامل كل أثقال وأوزان
وقد تزاور عن علم كليهم	وقد كبا الزند من زيد بن روحان
وأسلموا المال والأهلين واغتموا	أرواحهم فوق قب شخص أعيان

حتى تلافاهم البراق سيدهم
يا عين فابكى وجودى بالدموع ولا
فذكر برّاق مولى الحى من أسد
فتى ربيعة طوّف أماكنها
أخو السرايا وكشف القسطل الباني
تملّ يا قلب أن تبلى بأشجان
أنى حيوتى بلا شك وإنساني
وفارس الخيل فى روع وميدان

قال وإن الرقشاء لما وصلت إلى البرّاق أنشدته الأبيات فتاءوه ساعة ثم قال يا
رقشاء ما أزورها فى ذى النساء ولا بد أن يساعدنى الدعر فألقاها فى ذى الأبطال
فبلغنيها عنى وبلغنيها عنها لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً وأنشد يقول:

اسأل فؤادى عن همّ وبلبال
متى أنال شفا دابى بالويدة
بها أروى غليلى عن أخى وبها
لعل روحان يأتى فى بنى أسد
فى فيلق كسواد الليل من مضر
ويستفيق كليب مع نويرته
قوم مساعير حرب راكبين وغى
ودمع عيني عن سجم وتهطال
معلومة ورجال غير أعزال
أردّ ليلى إلى الأهلين والمال
كليب غاب إذا يعدو بأشبال
وحى غسان أهل المنصب العالي
وعامر بن دؤيب وابن صنهال
راموا من الأمر حقاً كل أهوال

ثم إنّه قصد بعد ذلك قبر أخيه وبكى ساعة ثم أنشد وقال:

ليس البكاء الذى نكيه بالقل
فذاك غرسان ما أرجوه إن ظفرت
هل تسمعن دعاءى إن دعوت وهل
أسايل الريح عن قومى إذا خفت
لكنه بظباء الهند والأسل
كفى فذلك عندى غاية الأمل
ترى مقيماً كمغروء من الإبل
وعن كليب الذى ولى ولم يسل

ثم رجع إلى منزله فى دار صريم وكان صريم قد استأذن من البرّاق وخرج فى
أشغال له وأمر زوجته الرقشا أن تزيد فى إكرام البرّاق وتعاونيه بكل ما تقدر عليه *

قال ثم إن الرقشاء تقدمت إلى البراق وقالت له الرأى عندى أن أذهب إلى ليل وأشير عليها أن تستأذن من الملك فى الخروج إلى الصحرا لأجل الزهة فإذا أذن لها أخبرتك وجعلت لك وقتاً معلوماً ترصدها فيه فاستحسن البراق رأيها ثم مضت إلى ليل وبثت إليها ما فى نفسها وتعاهدنا على كتم سرهما وأرسلت ليل تسأل الملك أن يأذن لها بالخروج إلى الصحرا ولجت فى السؤال حتى وافقها وضرب لذلك يوماً معلوماً فلما علمت ليل أنه قد أمر لها بذلك أمرت الرقشا أن تخبر البراق لأجل أن يكون على استعداد فسارت الرقشا وأخبرت البراق ولما كان ذلك اليوم تجهز البراق وليس لأمة حربه وركب جواده ووقف فى ناحية من الطريق إلى أن أقبلت ليل وكان فى صحبتها جماعة من جند الملك فتقدم حتى قارب ليل وكانت راكبة على نجيب وفى صحبتها ثلاث جوار فقال لها حتى نجيبك فحشت نجيبها ومال بها إلى جانب فلحقه بعض الجند فسل حسامه وعطف عليهم وردّ أولهم على آخرهم فرجعوا إلى المدينة وراح البراق بليل منصوراً وقد طاب له الوقت. وذهب عنه المقت وحصل على المطلوب ونال ما كان يتمناه من لقاء المحبوب وما زال يقطع القفار ويواصل سير الليل بسير النهار حتى أشرف على الديار فركبت للقاءه السادات والأبطال واستقبلوه أحسن استقبال وهنأوه بسلامة عودته إلى الأوطان وعزوه بأخيه غرسان قال وشاع الخبر فى قبائل نزار بقدم البراق فقامت البشائر فى القبائل والعشائر حتى لم يبق فى بلاد العرب أمير ولا سيد خطير ولا من يشار إليه إلا وقصد البراق وأقبل عليه فتلقاهم البراق بالإكرام والترحيب وقابلهم مقابلة الخليل الحبيب ونحر لهم الجزور والأغنام مدة سبعة أيام وهو ينصب الموايد ويقدم الطعام ثم زوجوا البراق ببلبل بدر التمام وكانت عذراء لم يظفر بها أحد من العرب والأعجام واتفق له فى ذلك العرس من الأبهة والاحترام شيء لم حصل لأحد مثله من الملوك العظام ونثر عليه السادات والكبراء وفرسان القبائل والأمراء الفضة والذهب والؤلؤ النفيس المنتخب ثم انصرفت بعد ذلك السادات والأبطال طالبة المنازل والأطلال وأقام البراق فى أرغد عيش وأحسن حال وقد انتشرت هيئته فى الآفاق وشاع ذكره فى اليمن والحجاز وبلاد نجد والعراق وصفى له الوقت وراق وهذا ما انتهى ألىنا من أخبار ليل ووقائع البراق.